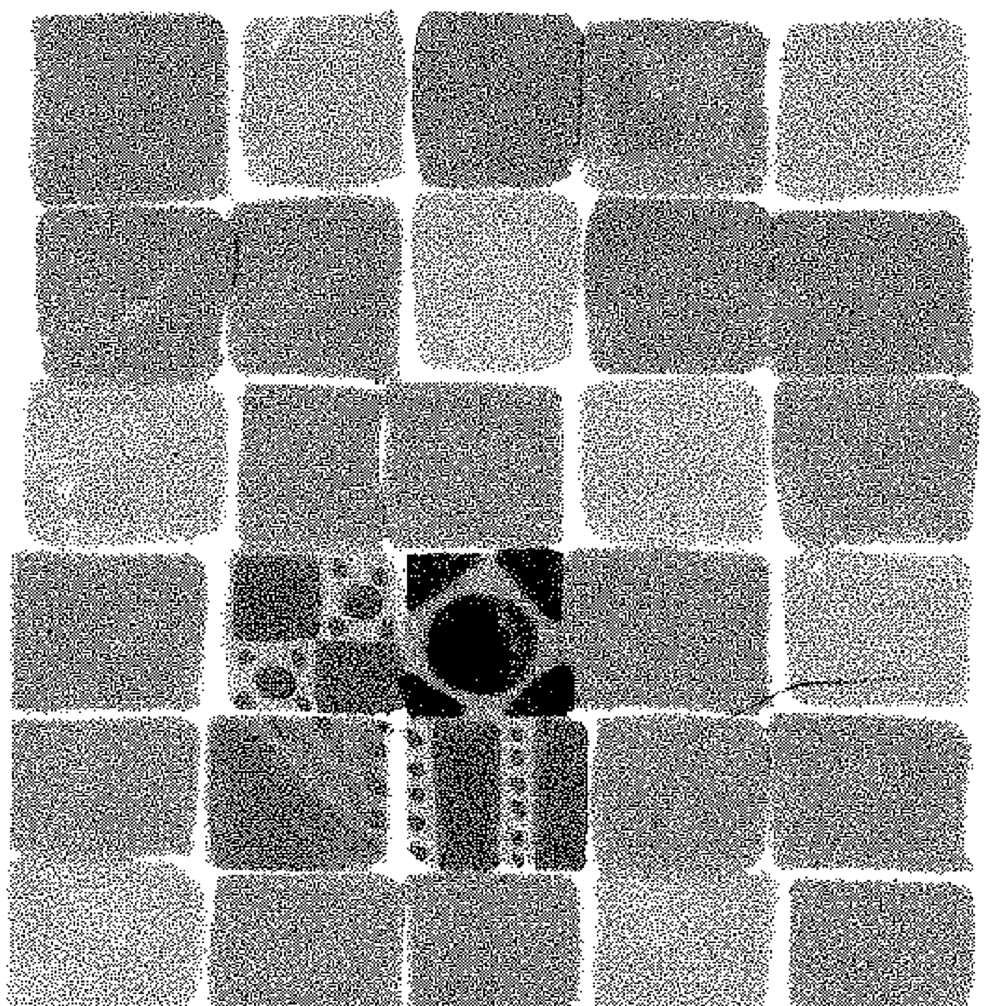
دراسة

شجاعة الإبداع

رولـــو مـاى



ترجمة : فؤاد كامل

شجاعة الإبداع

الطبعـــــة الأولـــى ١٩٩٢

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصـــــفاة ١٣١٣٣ - الكـويت
ص . ب : ١٢ المقطم - القاهرة

☎ ٣٤٩٧٧٧٩
٣٤٩١٧٢٧

٩٢ / ٨٧٣٩
I.S. B. N
977 - 07 - 222-0

الاشراف الفني : حلمي التوني

د

دراسة

شجاعة الإبداع

رولو ماي

ترجمة

فؤاد كامل

دار سعاد الصباح

الإهـــداء

إلى من واتته شجاعة الابداع فى أحلك الظروف وأصعبها ، فلم يكف عن الغناء ......

إلى أخى وصديقى الشاعر الأصيل النبيل .

محمد إبراهيم أبو سنة

تحية تقدير لعزيمته الخلاقة التى تتحدى الصعاب ، ولإرادته الصلبة التى تتخطى العقبات ، والتى ربما دمرت غيره من الشعراء وحطمت عزائمهم وأسكتت أصواتهم .....

فؤاد كامل

تصدير

طاردتني مسائل الابداع الخلاّبة طوال حياتي . فلماذا « تطفو » من اللاشعور في لحظة معينة فكرة أصيلة في العلم أو الفن ؟

وماهي العلاقة بين الموهبة وفعل الابداع ، وبين الابداع والموت ؟

ولماذا تمنحنا مسرحية صامتة (إيمائية) أو رقصة كل هذا السرور ؟

كيف استطاع هوميروس في تناوله لشئ بشع مثل حرب طروادة ، أن يصوغه شعرا أصبح فيما بعد مرشدا لأخلاقيات الحضارة الإغريقية بأسرها ؟

سألت نفسي هذه الأسئلة لا بوصفي متفرجا ، ولكن بوصفي شخصا يشارك هو نفسه في الفن والعلم . سألتها بدافع من الإثارة التي أعانيها ، عندما أتأمل – مثلا – لونين من ألواني يختلطان ليخرج منهما لون ثالث لم أكن أتوقعه . أليس من السمات المميزة للكائن البشري أن يتوقف لحظة في سباق التطور المحموم ليرسم على جدران الكهف في لاسكو وألتاميرا تلك الوعول والثيران البنّية المشربة بالحمرة التي مازالت تملأ جوانحنا بالاعجاب والرهبة الممتزجين بالدهشة ؟ ماذا لو أن إدراك الجمال كان في حد ذاته سبيلا إلى الحقيقة ؟ ماذا لو أن الأناقة elegance – كما يستخدمها علماء الفيزياء لوصف كشوفهم – كانت مفتاحا للواقع النهائي Ultimate reality ؟ ماذا لو كان جويس joyce على حق في قوله إن الفنان يبدع الوعي اللامخلوق للجنس البشري » ؟

وفصول هذا الكتاب تسجيل جزئي لخواطرى . وكان منشؤها على هيئة محاضرات ألقيتها فى الكليات والجامعات . وقد ترددت دائما فى نشرها لأنها بدت لى ناقصة ، إذ ما برح سر الابداع قائما . غير أننى أدركت فيما بعد أن صفة « النقص » هذه ستبقى دائما وأبدا ، وأنها جزء من عملية الابداع نفسها والتقى هذا الادراك مع حقيقة أخرى ألا وهى أن كثيرا من الناس الذين استمعوا إلى تلك المحاضرات ألحوا فى نشرها . أما العنوان فقد أوحى به إلىّ كتاب بول تيليتش Paul Tillich « شجاعة الوجود » the Courage to be وهذا بيّن يسرنى أن أعترف به . غير أن الانسان لا يمكن أن « يوجد » فى فراغ . ولهذا فنحن نعبّر عن وجودنا بالابداع . فالابداع تكملة ضرورية للوجود . وفضلا عن ذلك فإن كلمة « شجاعة » الواردة فى عنوانى تشير- بعد الصفحات القلائل الأولى فى الفصل الأول - إلى ذلك النوع الخاص من الشجاعة اللازمة لفعل الابداع ، وهو نادرا مانعترف به فى مناقشاتنا التى تدور حول الابداع ، وأندر من ذلك أن يُكتب عنه شئ .

وأود أن أعبر عن أمنياتى لبعض الأصدقاء الذين قرأوا المخطوط كله أو جزءا منه ، وناقشوا معى ما قرأوه : آن هايد و ماجده دينيس ، وإلينور روبرتس .

وعلى غير العادة فى مثل هذه الأحوال ، كان تجميع هذا الكتاب مصدر سرور لى ، إذ أتاح لى الفرصة أن أتناول تلك الأسئلة جميعا مرة أخرى وكل مانرجوه أن يكون هذا الكتاب مصدر سرور القارئ كما كان مصدر سرور أثناء تجميعه .

روللوماى

هولدرنس - نيوهامشاير

نبذة عن المؤلف

الدكتور رولو ماى عالم ومحلل نفساني ، ومفكر وجودى أمريكي . فهو ينظر إلى مشكلات الانسان النفسية من وجهة النظر الوجودية المصيرية ، ولا يحصر نفسه في المجال الأكاديمي الصرف ، ومن هنا كانت قيمته كمفكر إنساني واسع الأفق .

ومن حيث مراكزه المهنية قام بعملية التدريب والاشراف على طلبة معهد « وليم آلانسون وايت » للطب النفسي ، والتحليل النفسي وعلم النفس كما قام بالتدريس في جامعات هارفارد وبرنستون وييل وكان عضوا ، وأستاذا في مجلسي جامعتي كاليفورنيا وسانتا كروز ، وكان يلقى محاضراته على نطاق واسع ومكثف في الجامعات والكليات الأمريكية وقد لقيت كتبه رواجا هائلا بين الجماهير المثقفة ، ومن أهمها : « **معنى القلق** » ، « **بحث الإنسان عن نفسه** » ، « **الحب والارادة** » الذى فاز بجائزة رالف والدن إمرسون .

ف . ك

الفصل الأول

شـــجاعة الابداع

نحن نحيا في زمان يموت فيه عصر ، دون أن يولد مكانه بَعْدُ عصرٌ جديد .لا نشك في ذلك إذا نظرنا حـــولنا لنرى التـغـيـرات الجـذرية التى طرأت على الأعـراف الجنسـيـة ، وعلى أسـاليب الـزواج ، وعلى هيـاكل الأسـرة ، وعلى التـربية ، والدين ، والتقنية ، وعلى مظاهر الحياة الحديثة كلها تقريبا . وراء هذا كله يكمن خطر القنبلة الذرية ، الذى وإن تراجع بعيدا إلا أنه لا يختفى أبدا وأن حياة الانسان بشئ من الحساسية في هذا العصـر الجهنمي تتطلب قدرا من الشجاعة ، ما في ذلك ريب .

وهنا يواجهنا اختيار . هل ننسحب في جزع وذعر ونحن نشعر بأن الأسس التى تقوم عليها حياتنا آخذة فى الاهتزاز ؟

هل نُصاب بالشلل ونغطّي إحجامنا عن الفعل باللامبالاة بعد أن استولى علينا الخوف من جراء افتقادنا لمراسينا المألوفة ؟

لو فعلنا هذه الأشياء فمعنى ذلك أننا تنازلنا عن فرصتنا للمشاركة فى تشكيل المستـقبل ، ونكون قد خسرنا السمة المميزة لنـا بوصفنا كائنات بشرية ، ألا وهي أن نؤثر على تطورنا من خلال وعينا ، ونكون قد خضعنا لقوة التاريخ الساحقة العمياء وأضعْنا الفرصة لتشكيل المستقبل على هيئة مجتمع أكثر عدلا وإنسانية .

أم لعلنا نأخذ بزمام الشجاعة اللازمة للحفاظ على حساسيتنا ، ووعينا ومسئوليتنا في مواجهة التغير الجذري ؟

هل نُسهم بوعي – أيا كان مستواه – في تشكيل المجتمع الجديد ؟ ..أرجو أن يكون اختيارنا هو هذا الاختيار الأخير ، لأنني سأمضي في حديثي على هذا الأساس .

نحن مطالبون بالقيام بعمل جديد، أن نواجه أرضا لم يسكنها إنسان ، أن نقتحم غابة لم تطأ مسالكها ودروبها أقدام ، وحيث لم يعد منها أحد ليتولى إرشادنا وهذا مايسميه الوجوديون « قلق العدم » . ومعنى الحياة في المستقبل هو أن نقفز إلى المجهول ، وهذا يتطلب بدوره درجة من الشجاعة ليس لها سابقة مباشرة ، ولايدركها إلا قلّة من الناس .

١ – ماهى الشجاعة ؟

لن تكون هذه الشجاعة في مضاد اليأس ، وإن كنا سنواجه اليأس في كثير من الأحيان ، كما واجهه حقا كل شخص على شئ من الحساسية في هذه البلاد خلال العقود الأخيرة ومنذ ذلك الحين أعلن كيركجور ونيتشة وكامو وسارتر أن الشجاعة ليست غياب اليأس ، وإنما هي بالأحرى القدرة على التحرك قدما ، على الرغم من اليأس .

وكذلك لاتتطلب الشجاعة مجرد العناد . فمن المؤكد أننا سنبدع بالتعاون مع الآخرين . ولكنك إن لم تعبِّر عن أفكارك القديمة الخاصة ، ولم تُنصت لوجودك الخاص ، فإنك سوف تخون نفسك ، بل ستخون مجتمعنا. إذ تفشل في إسهامك إلى المجموع .

ومن الصفات الرئيسية لهذه الشجاعة أنها تقتضي تمركزا داخل وجودنا الخاص ، وبدونه نشعر بأننا مجرد فراغ . هذا الخواء الداخلي يناظر اللامبالاة في الخارج ، وهذه اللامبالاة تدعّم الجُبن على المدى الطويل . ولهذا ينبغي علينا دائما أن نؤسس التزامنا في المركز من وجودنا الخاص ، وإلا لن يكون ثمة التزام حقيقي في نهاية الأمر.

ولا ينبغي فضلا عن ذلك أن نخلط بين الشجاعة وبين التهور . وحين يتخذ المرء من الشجاعة قناعا يتخفى وراءه ، فلن تكون في حقيقة الأمر سوى مجرد تبجح للتعويض عن خوفه اللاشعوري ، والنهاية المحتومة لمثل هذا التهور هي الهلاك . ومن ثمّ لن يكون هذا التظاهر بالشجاعة وسيلة بناءة ولا مثمرة .

وليست الشجاعة فضيلة أو قيمة بين القيم الشخصية الأخرى كالحب أو الإخلاص . وإنما هي الأساس الذي يكمن وراء كل الفضائل والقيم الشخصية الأخرى ويضفي عليها طابعا واقعيا . فبدون الشجاعة يشحب حبنا ليصبح مجرد تبعية واعتماد على الآخر . وبدونها يصبح إخلاصنا مجرد مسايرة .

وكلمة شجاعة Courage مشتقة من الكلمة الفرنسية Coeur ومعناها « القلب » . وكما يمكننا القلب – حين يضخ الدم في أذرعنا وسيقاننا وأمخاخنا – أن نستعمل كل أعضائنا الجسدية الأخرى في وظائفها ، فكذلك تجعل الشجاعة كل الفضائل النفسية الأخرى ممكنة . وبدون الشجاعة تتحلل الفضائل جميعا إلى مجرد نسخ شبيهة بها .

والشجاعة ضرورية في الكائنات البشرية لتجعل الوجود Be-ing والصيرورة Becoming شيئا ممكنا .

وتأكيد الذات ، والالتزام ضروريان إذا أرادت الذات أن تتصف بشيء

مــن الحقيقة . وهذا هو التميز الذى تتصف بها الكائنات البشرية عن بقية أشياء الطبيعة . فجوزة البلوط تصير شجرة بلوط بواسطة النمو التلقائى ، دون أية ضرورة للالتزام . وبالمثل ، تصبح القطيطة قطة على أساس الغريزة .

ذلك أن « الطبيعة » و « الوجود » شئ واحد فى المخلوقات المماثلة .أما الرجل والمرأة ، فإن كلا منهما تكتمل إنسانيته باختياراته أو إختياراتها ، بالتزامه أو بالتزامها بهذه الاختيارات .

ويكتسب الناس قيمتهم وكرامتهم نتيجة للقرارات التى يتخذونها يوما بعد آخر وهذه القرارات تتطلب شيئا من الشجاعة بوصفها « أنطولوجية » (أى تنتسب إلى الوجود) .. ذلك أنها جوهرية لوجودنا .

٢- الشــجاعة البدنية

وهذه أبسط أنواع الشجاعة وأوضحها . وفى حضارتنا ، تستمد الشجاعة البدنية شكلها الرئيسي من حدود بلادنا . وكانت نماذجنا الأولية prototypes تتمثل فى الأبطال الرواد الذين حققوا القانون بأيديهم ، والذين عاشــوا لأنهم كانوا يستطيعون سحب مسدساتهم بأسرع مما يستطيع خصومهم ، والذين كانوا قبل كل شئ على ثقة بأنفسهم ويستطيعون احتمال الوحدة التى لا مفر منها فى السكن بحيث يكون أقرب جار لهم على بُعْد عشرين ميلا .

غير أن المتناقضات التى يموج بها تراثنا الذى ورثناه عن هذه الحدود تتضح لنا على الفور . وبغض النظر عن البطولة التى أنشأتها فى أسلافنا ، فإن هذا الصنف من الشجاعة لم يفقد الآن فائدته فحسب ، وإنما انحط إلى شئ من الوحشية . وعندما كنت طفلا أعيش فى مدينة صغيرة من مدن الغرب الأوسط ،

كان من المفروض أن يتقاتل الصبيان بقبضاتهم . غير أن أمهاتنا كنّ يعرضن وجهة نظر مختلفة ، ومن ثم كان الفتيان يجلدون فى كثير من الأحيان فى المدرسة ثم يُضربون بالسياط من أجل القتال عندما يعودون إلى منازلهم . ولا يمكن أن تكون هذه طريقة فعالة لبناء الشخصية . وبوصفى محللا نفسيا ، سمعت مرارا وتكرارا عن رجال كانوا حساسين فى صباهم ، ولا يستطيعون أن يتعلموا كيفية إذلال الآخرين ، وبالتالى فقد خاضوا الحياة مقتنعين بأنهم جبناء .

وتعد أمريكا من أعنف الأمم التي يقال عنها إنها متمدينة ، ونسبة القتل عندنا أعلي من ثلاثة إلي عشرة أضعاف مثيلتها في أمم أوروبا . ومن أهم أسباب ذلك تأثير هذه الوحشية التي ورثناها عن الجدود .

نحن فى حاجة إلى شجاعة بدنية جديدة لا تعربد فى العنف ولا تتطلب تأكيدنا للقوة المتمركزة للأنا التى تسعى للسيطرة على الآخرين . وأقترح شكلا جديدا لشجاعة البدن ، وهى استخدام الجسد لا فى تنمية أصحاب العضلات المفتولة ، ولكن فى اكتساب الحساسية . وهذا معناه تنمية القدرة على الاستماع « مع » الجسد . وسيكون ذلك – كما لاحظ نيتشة – أن نتعلم التفكير بالجسد كما سيكون تقديرا للجسم بوصفه وسيلة للتعاطف مع الآخرين ، وتعبيرا عن الذات بوصفها شيئا جميلا ، ومصدرا ثريا من مصادر المتعة .

هذه النظرة إلى الجسد بدأت تشيع فعلا فى أمريكا من خلال تأثير اليوجا ، والتأمل ، وبوذية زن ، zen وبعض السيكولوجيات الدينية الأخرى الواردة من الشرق . والجسد فى تلك المذاهب لا يكون موضعا للإدانة ، ولكنه يحظى بالتقدير بوصفه مصدرا الكبرياء التى لها ما يبررها . وأقترح هذا للبحث بوصفه نوع الشجاعة البدنية الذى سوف نحتاج إليه فى مجتمعنا الجديد الذى نتحرك نحوه .

٣ -الشـجاعة الأدبية

صنف ثان من الشجاعة هو الشجاعة الأدبية . والأشخاص الذين عرفتهم ، أو عرفـت عنهم ، والـذين تحلوا بشجاعة أدبية عظيمة كانوا يمقـتون بعامـة اللجـوء إلـى العنف . خذ على سبـيل المثـال الكسـندر سولجنتسن Aleksander Solzhenitsyn الكاتب الروسى الذى وقف وحده ضد سطوة البيروقرطية السوفيتية احتجاجا على المعاملة اللاإنسانية القاسية للرجال والنساء فى معسكرات الاعتقال الروسية . وكانت كتبه العديدة التى كتبها بأفضل نثر روسى حديث تصرخ فى وجه التعذيب الذى يلاقيه أى انسان ، سواء كان هذا التعذيب بدنيا أو نفسيا أو روحيا . وتبرز شجاعته الأدبية أوضح ماتكون لاسيما وأنه ليس ليبراليا ، وإنما وطنى روسى . وأصبح رمزا لقيمة لم نعد نراها فى عالم مضطرب ..ألا وهى أن القيمة الفطرية للكائن البشرى ينبغى أن تُحترم لمجرد صفته الانسانية وبغض النظر عن مذهبه السياسى . وقد أعلن سولجنتسن وكأنه شخصية من شخصيات دوستويفسكى (كما يصفه ستانلى كونيتز Stanley Kunitz) : « أضـحى بحياتى مسرورا إن كان فى ذلك خدمـة للحقيقـة » . ولما كانت الشرطة السوفييتيـة تخشـاه ، فقد ساقته إلـى السجن .

وتقـول القـصـة إنـه جرد من ثيابه وأجبر على السير أمام فرقة للإعدام بالرصـاص . وكان غرض الشـرطة أن تخيفـه إلى درجـة المـوت ، مادامت لا تستطيع إسكاته نفسيا ، فكانت الرصاصات فارغة .ويعيش سولجنتسن الآن لا يرهبه شئ منفيا فى سويسرا حيث يقوم بدوره المزعج للسلطات ، بتوجيه هذا النوع نفسه من النقد لأمم أخرى ، مثل الولايات المتحده ، فى المواطن التى

تحتاج فيها ديمـــقراطيتنا بجلاء إلى مــراجعة جذرية .ومادام هناك أشخاص يتحلون بما يتحـــلى به سولجنتســن من شــجاعة أدبية ، نستطيع أن نكون على يقين من أن « انتصار الانسان الآلي » Robot لم يحدث بعد .

وشجاعة سولجنتسن – مثل شجاعة الكثيرين غيره الذين يملكون تلك البسالة الأدبية – لا تصدر عن جرأته فحسب ، وإنما تصدر أيضــا عــن تــعاطفه مــع المعاناة الانسانية التي شاهــدها حولــه أثـناء إقامتـه في معـسكر الاعتقال السوفييتي. ومن الأمور ذات الدلالة المهمة جدا ، بل تكاد تكون قاعدة حقا هو أن الشجاعة الأدبية تصدر عن التطابق من خلال حساسية المرء مع معاناة إخوانه في البشرية . وأميل إلى تسمـية هذا النوع مـن الشجاعة باسم « الشجــاعة الإدراكية » perceptual courage لأنها تتوقف على قدرة المرء على « الأدراك » ، حين يدعو نفسه لرؤية مـعاناة الآخرين ، فلو أننا سمـحنا لأنفسنا بتجربة الشر ، فسنجـــد أنفسنا مدفوعين إلى فعـل شئ بصدده . ومن الحقائق التي يعترف بها الجميع ، أننا حين لا نريد أن نصبح ملتزمين وعندما نريد أن نواجه حتى قضية أن نسارع أو لا نسـارع لنجدة شخص أسيئت معاملته ، فـإننا نغلق نوافذ إدراكنا ونغمض عيوننا عن عذاب الآخر ونقطع تعاطفنا عن الشخص الذي يطلب العون . ومن ثم كان ذلك الشكل السائد من أشكال الجبن في يومنا هذا يتستر خلف هذه الجملة :« أنا لا أريد أن أتورط في شئ . »

٤ –الشجاعة الاجتماعية

والنوع الثـالث من أنــواع الشـجاعـة هـو عكس ذلك التـعـاطف الـذي وصفـناه من فورنا وأنا أطلق عليه اسم « الشجاعة الاجتماعية » . وهي القدرة على المخاطرة بالنفس أمـلا فـي تحقيق حميمية Intimacy ذات مـعنى . وهي

شجاعـــة استثمـار الــذات فترة من الزمن فى علاقـــة تقتضى « انفتاحيــة » (أو مكاشـفة) آخذة فى الازدياد . والــعلاقة الحـميمة تتـطلب الشـجاعة لأن المخاطـــرة فيها شئ لا مهرب منه.إذ لا نســـتطيع فى بداية الأمر أن نعرف كيف ستؤثر فينا هـذه العلاقة . فهى كالمزيج الكيـمياثى إذا تـغيــر أحدنا ، تغيــرنا نحن الاثنين ، هل ننمو فيـهـا إلى نوع من التحـقـق الذاتى ، أو أنهـا ســتحطمنا مـعـاً ؟ شئ واحـد نســتطيع أن نكون على يقين منـه وهو أننا لو أسلمنا أنفســنا تماما لهذه العلاقة فى الخير أو الشــر فإننا لن نخـرج منها دون تأثير .

ومن الممـارســـات المشتركة في يومنا هذا أن نتجنب تنمـيـة الشـــجاعة المطلوبة لهــذه الحميمية وذلك بتحويل القضية إلى الجســـم ، فنجعلها مسألة تتعلق بمجرد الشـــجاعة البدنية . فمن الأيسر فى مجتمعنا أن نتعرى بدنيا بدلا من أن نتعـــرى نفسيا أو روحيا .. من الأيســـر أن نتقاسم جســـدنا بدلا من أن نتقـاســـم أحلامنا وآمالنا ومخــاوفنا وتطلعـــاتنا ، وهى التى نشــعر بأنهـا أكثر شـــخصية وأن المشاطرة فيها تجعلنا أكثر تعرضـا للخطــر . ولأســـباب غريبة ترانا نخجل من مشــاطرة الأمور الأكثر أهمية ومن ثم فإن الناس يختصرون دائرة المسألة الأخطر التى تتعلق ببناء علاقة بالوثوب مباشرة إلى الفراش ! فـالجسـد لايزيد عن مـجرد كونه « شئ » ، ومن الممكن معـاملته معـاملة آلية .

أما الصلة الحميمة التي تبدأ وتبقى على المستوى الجسدى فإنها تميل إلى أن تصير علاقة زائفـة ، وسرعان مـانجد أنفسنا هاربين فيما بعد مـن الشـــعور بالخـــواء . والشـــجاعة الاجتماعية الحقيقية تتطلب « الحـــميمية » على كثير من مستويات الشخصية فى آن واحـد . وحين نفعل ذلك فحسب نستطيع أن نتغلب

على الاغتراب الشخصي .. فلا عجب أن يجلب الالتقاء بأشخاص جدد خفقة من القلق مثلما يجلب فرحة التوقع ، وكلما توغلنا في الصلة ، اتسم كل تعمق جديد بشئ من الفرح الجديد والقلق الجديد وأصبح من الممكن أن يكون كل لقاء جديد نذيرا وبشيرا بمصير مجهول ينتظرنا وقد يكون أيضا منشطا لسرور مثير لمعرفة شخص آخر معرفة حقيقية .

وتتطلب الشجاعة الاجتماعية مواجهة صنفين مختلفين من الخوف وهذان الخوفان يصفهما واحد من المحللين النفسيين الأوائل هو أوتو رانك Otto Rank وصفا جميلا ، فيسمي الخوف الأول « خوف الحياة » ، وهذا هو الخوف من أن يعيش المرء وحيدا مهجورا ، ويتمثل في الحاجة إلى الاعتماد على شخص آخر . ويكشف هذا الخوف عن نفسه في الحاجة إلى أن يلقى المرء بنفسه تماما في علاقة بحيث لا يبقى من نفسه شئ يرتبط به . والواقع أن هذا الانسان يصبح انعكاسا للشخص الذي يحبه – أو يحبها – بحيث تصبح هذه العلاقة – إن عاجلا أو آجلا – مدعاة للضجر في نظر الشريك . وهذا هو خوف تحقق الذات كما يصفه « رانك » . ولما كان « رانك » قد عاش أربعين عاما قبل أيام تحرير المرأة ، فقد تنبأ بأن هذا الصنف من الخوف هو من أكثر السمات تمييزا للنساء .

أما الخوف المضاد فيسميه رانك « خوف الموت » وهذا هو الخوف الذي يجعلنا مستغرقين كليةً في الآخر ، خوف خسران الذات واستقلالها ، خوف انتزاع اعتماد المرء على نفسه . وهذا هو الخوف المرتبط بالرجال – كما يقول رانك – وذلك لأنهم يحرصون على أن يتركوا الباب الخلفي مفتوحا حتى يستطيعوا اللجوء إلى انسحاب سريع في حالة ما إذا أصبحت العلاقة حميمة أكثر من اللازم .

وبالفعل لو أن « رانك » عاش حتى يومنا هذا لوافق على أن هذين النوعين من الخوف يستحقان المواجهة ، بنسب متفاوتة بكل تأكيد من الرجال والنساء على حد سواء . فنحن نتأرجح طوال حياتنا بين هذين الخوفين . فهما حقا شكلا القلق اللذان ينتظران كل من يهتم بشخص آخر. غير أن التصدى لهذين الخوفين والوعى الذى ينميه المرء – لا بأن يكون ذاته فحسب ، بل أيضا بالمشاركة في ذوات الآخرين – هذا الوعى ضرورى إذا شئنا أن نتحرك صوب تحقيق الذات .

وقد كتب ألبير كامو Albert Camus في كتابه « المنفى والمملكة » قصة تصور هذين النوعين المتضادين من الشجاعة ، إذ تحكى « الفنان أثناء العمل » حكاية مصور باريسي فقير لا يكاد يملك من المال مايكفيه لشراء الخبز لزوجته وأطفاله. وعندما رقد الفنان على فراش الموت وجد أن أعز أصدقائه اللوحة التي كان يعمل فيها . وكانت بيضاء تماما إلا من كلمة واحدة مكتوبة في غير وضوح وبحروف صغيرة جدا تظهر في مركز اللوحة . والكلمة يمكن أن تكون إما « وحيدا » Solitary ، محتفظا بالمسافة بينه وبين الأحداث ، متمسكا بسكينة النفس اللازمة للإنصات إلى ذاته الأعمق وإما أن أن تكون «متضامنا» Solidary أى « العيش في ساحة السوق » . والتضامن أو الالتزام أو التوحد مع الجماهير ، على حد تعبير كارل ماركس . ورغم مابين العزلة والتضامن من تعارض ، إلا أن كلا منهما جوهرى إذا أراد الفنان أن ينتج أعمالا لا تكون ذات دلالة فحسب ، بل أن تتحدث أيضا إلى الأجيال المقبلة .

٥ – من مفارقات الشجاعة

وهنا تواجهنا مفارقة عجيبة يتسم بها كل صنف من الشجاعة ، ألا وهي ذلك التناقض الظاهرى من أنه ينبغى علينا أن نلتزم التزاما تاما . ولكن يجب علينا أيضا أن ندرك فى الوقت نفسه أننا من الممكن أن نكون مخطئين . هذه العلاقة الجدلية بين الاقتناع والشك سمة مميزة لأعلى أنماط الشجاعة كما تكذبّ التعريفات التبسيطية التى توجّد بين الشجاعة وبين مجرد التمو .

فالأشخاص الذين يزعمون أنهم مقتنعون اقتناعا مطلقا بأن موقفهم هو الموقف الوحيد الصحيح ، أشخاص خطرون . وليس هذا الاقتناع هو جوهر القطعية (الدجماطيقية) فحسب ، ولكنه أيضا من أشد أبناء عمومته تدميرا ، ألا وهو التعصب . ذلك أنه يحول بين من يستخدمه وبين تعلم حقيقة جديدة ، كما أنه قضاء على كل شك لاشعورى . إذ يكون على المرء عندئذ أن يضاعف احتجاجاته لا لكي يخمد المعارضة فحسب ، وإنما ليخمد أيضا شكوكه اللاشعورية .

وكلما سمعت – كما سمعنا كلنا في معظم الأحيان أثناء قضية نيكسون « ووترجيت » – النغمة التى تردد « أنا مقتنع اقتناعا مطلقا » أو « أريد أن أوضح توضيحا مطلقا » الصادرة عن البيت الأبيض .. كلما سمعت هذا استجمعت شتات انتباهى ، إذ كنت أعلم أن شيئا من الخداع سوف يطرق أسماعنا وعلامته هي هذا التوكيد المشدّد . وقد قال شكسبير بذكاء : « إن السيدة (أو السياسى) يحتج أكثر من اللازم ، على ما أرى . » فى مثل هذا الوقت يتشوق المرء الى وجود زعيم مثل لنكولن الذى كان يعترف صراحة بشكوكه ، ويحتفظ بالتزامه بالصراحة نفسها ومن الأسلم إلى غير نهاية أن يعلم المرء أن الرجل الذى يتربع

علي القـمـة له شكوكـه التي تراوده كـمـا تراودنا أنت وأنا ، ومع ذلك لديه من الشجاعة مايدفعه قدما إلي الأمام رغم تلك الشكوك . وعلي العكس من المتعصب الذي حصّن نفسه ضد الحقيقة الجديدة ، فإن الشخص الذي لديه الشجاعة للايمان والاعتراف في الوقت نفسه بشكوكـه يتميز بالمرونة وبالانفتاح على التعلم الجـديد .

وكان « بول سيزان » يؤمن إيمانا راسخا بأنه يكتشف ويرسم شكلا جديدا من المكان سيؤثر جذريا على مستقبل الفن ، ومع ذلك كان ممتلئا في الوقت نفسـه بشكوك أليمة دائمة الحضور. وليست العلاقة بين الالتزام والشك علاقة عدائية بأي حال من الأحوال، ذلك أن الالتـزام لا يكـون « أصح » عندما لا يخلـو من الشك ، ولكـن « على الرغم » من الشك . وأن يؤمن المرء إيمـانا راسخا ولديـه في الوقت نفسه بعـض الشكوك ليس تناقضا بحال من الأحوال : وإنما تفترض هذه الحالة احتراما أعظم للحقيقة ، وإدراكا لأن الحقيقة يمكن أن تتجاوز كل مايمكن أن يقـال أو يصـنع في لحظة معينة . ولكل دعوى Thesis نقيضها ، ولكل نقيض مركب للموضوع ومن ثمّ فإن الحقيقة عملية لا تنتهي أبدا . وهكذا نعرف معـنى العبارة المنسوبة إلى ليبنتس Leibnitz : « إننـي على اسـتعداد للسير عـشرين ميلا لكي استمع إلـى ألد أعدائي إذا كان من الممكن أن أتعلم منه شيئا » .

٦ – الشجاعة الخلاقة

ويؤدي بنا هذا الى أهم أنواع الشجاعة على الاطلاق . فبينما كانت الشجاعة الأدبية هي تقـويم الأخطاء ، كانت الشجاعة الخلاقة – على عكس ذلك – هي اكتشاف أشكال جديدة ، ورموز جديدة ، ونماذج جديدة يمكن أن يُشَيَّد عليها

المجتمع الجديد . ومامن مهنة إلا وتقتضى شجاعة إيجابية وفى أيامنا تقع التكنولوجيا والهندسة ، والدبلوماسية والأعمال ، والتعليم بكل تأكيد ، وعشرات من المهن الأخرى .. تقع وسط تغير جذرى وتتطلب أشخاصا شجعانا لتقدير هذا التغير وتوجيهه . وتتناسب الحاجة إلى الشجاعة المبدعة تناسبا مباشرا مع درجة التغير التى تطرأ على المهنة .

غير أن الذين يتقدمون مباشرة وفورا بالأشكال والرموز الجديدة هم الفنانون من مؤلفى الدراما ، والموسيقيين ، والمصورين ، والراقصين ، والشعراء ، وهؤلاء الشعراء الذين ينتمون إلى المجال الدينى نسميهم قديسين . وهؤلاء الفنانون جميعا يصورون الرموز الجديدة على هيئة صور شعرية ، أو تشكيلية ، أو درامية كيفما اقتضى الأمر . فهم يعيشون خيالاتهم . والرموز التى يحلم بها معظم الكائنات البشرية يتم التعبيرعنها فى الشكل الجرافيكى بواسطة الفنانين غير أننا فى تذوقنا لعمل مُبْدع - وليكن خماسية لموتسارت مثلا - فنحن نؤدى أيضا فنا خلاقا . وعندما نتأمل لوحة تصويرية ، وبخاصة فى الفن الحديث ، فإننا نمر بتجربة لحظة جديدة من الحساسية إذ تنطلق فينا رؤية جديدة نتيجة لاحتكاكنا بهذه اللوحة ، شئ فريد يتولد فى نفوسنا . ولهذا فإن تذوق الموسيقى أو الرسم أو غيرها من الأعمال التى ينتجها الشخص المبدع .. هذا التذوق هو أيضا فعل خلاق من جانبنا .

وإذا شئنا أن نفهم هذه الرموز ، فلا بد لنا من أن نتوحد معها حين إدراكها ففى مسرحية بيكيت « فى « انتظار جودو » لاوجود لأية مناقشات عقلية عن إخفاق الاتصال فى عصرنا ، وإنما يُعْرض علينا الاخفاق ببساطة على خشبة المسرح فنراه أوضح مايكون علي سبيل المثال حين لا يستطيع « لاكى » Lucky - وفقا لأمر سيده بأن « يفكر » . لا يستطيع إلا أن

يطرطش خطبة طويلة تتضمن كل فخامة الحديث الفلسفى الأجوف ، ولكنها فى الواقع لاتزيد على كونها مجرد هراء يخلو من المعنى . وكلما اندمجنا شيئا فشيئا فى الدراما ، نرى على المسرح إخفاقنا الانسانى العام – بصورة أكبر مما هو فى الحياة – فى التواصل الحقيقى .

وفى مسرحية بيكيت ، نشاهد على خشبة المسرح شجرة عزلاء جرداء ، ترمز إلى العلاقة العزلاء الجرداء التى تربط بين الرجلين أثناء انتظارهما معا لـ « جودو » الذى لا يظهر أبدا ، وهذا الرمز ينتزع منا إحساسا مماثلا بالاغتراب الذى نعانيه نحن والجماهير . وهذه الحقيقة – وهى أن معظم الناس يفتقرون إلى وعى واضح باغترابهم – تضفى على هذا الوضع مزيدا من القوة .

وفى مسرحية يوجين أونيل : « رجل الثلج يأتى » ، لا توجد مناقشات صريحة عن تفكك مجتمعنا ، وإنما يظهر بوصفه واقعا فى الدراما . ونبل النوع الانسانى لا يدور الحديث عنه ، وإنما يعرض على أنه فراغ على خشبة المسرح . ولأن هذا النبل يتخذ مثل هذا الغياب الواضح ، وهذا الخواء الذى يملأ المسرحية ، فإنك تغادر المسرح يملأك إحساس عميق بأهمية أن تكون كائنا بشريا ، كما يحدث ذلك بعد أن تشاهد « ماكبث » أو « الملك لير » . وقدرة « أونيل » على توصيل هذه التجربة تجعله فى مصاف كتاب التراجيديا المجيدين فى التاريخ .

ويستطيع الفنانون أن يصوروا هذه التجارب بالموسيقى أو الكلمات أو الصلصال أو الرخام أو على القماش ، وذلك لأنهم يعبّرون عما يسميه يونج « اللاشعور الجمعى » . وقد لا تكون هذه العبارة هى أكثر العبارات حظا من التوفيق ، غير أن كلامنا يحمل فى أبعاد مدفونة من وجوده بعض الأشكال الأساسية ، بعضها متوارث عن النوع ،

وبعضها الآخر تجريبي من حيث الأصل وهذا هو ما يعبّر عنه الفنان .

وهكذا فإن الفنانين – وهذا الوصف ينطبق عندي على الشعراء والموسيقيين والمسرحيين ، والفنانين التشكيليين – وكذلك القديسين – هم « صف الندى » – على حد تعبير ماكلوهان Mcluhan ، أي الصف الأول (الطليعة) الذي يعطينا « إنذارا مبكرا بعيدا » عما يحدث لحضارتنا فنحن نلمح في الفن المعاصر رموزا وفيرة عن الاغتراب والقلق ؛ ولكننا نجد في الوقت نفسه الشكل وسط التنافر ، والجمال وسط القبح ، وشيئا من الحب الانساني وسط البغضاء ، وحبا ينتصر مؤقتا على الموت ولكنه يخسر دائما على المدى الطويل وعلى هذا النحو يعبّر الفنانون عن المعنى الروحي لحضارتهم . ومشكلتنا هي : هل نستطيع أن نقرأ مايقصدونه من معنى على الوجه الصحيح ؟

خذ « جيوتو » giotto فيما يسمى « عصر النهضة الصغير » Little Renaissance الذي ازدهر في القرن الرابع عشر . ففي مقابل موازيك العصر الوسيط ذي البعدين ، يعرض جيوتو طريقة جديدة في رؤية الحياة ، والطبيعة : فيجعل لرسوماته أبعادا ثلاثة . ومن ثم نشاهد الان الكائنات البشرية والحيوانات تعبّر وتخاطب فينا عواطف إنسانية نوعية مثل الرعاية أو الشفقة أو الحزن أو الفرح . أما في رسومات الموازيك القديمة ذات البعدين التي نجدها في كنائس العصر الوسيط ، فنحن لا نشعر بأن الكائن البشري ضروري لمشاهدتها ، إذ أن لها علاقتها الخاصة بالله على حين أن رسومات « جيوتو » تتطلب كائنا بشريا للنظر فيها . وهذا الكائن يجب أن يأخذ وضعه بوصفه فردا في علاقته بالصورة وهكذا تولدت هنا النزعة الانسانية

الجديدة والعلاقة الجـديدة مع الطبيعـة اللـتان أصبحتا فـى المركز من عـصر النهضـة (الرينيسانس) قبل مائـة عام من ظـهور هذا العصر بمعناه الحقيقى .

وفى محـاولتنا لادراك رموز الفن هذه ، نجد أنفسنا فى مجال يند عن تفكيرنا الواعى المألوف . ومهمتنا هنا تتجاوز المدى الذى يصل إليه المنطق تماما إذ تحملنا إلى منطقة زاخرة بكثير من المفارقات . خـذ مثلا الفـكرة التـى عبر عنـها شكسبير فـى أربعـة أبـيات مـن ختـام السونيتـة رقـم ٦٤ :

عـلمنى الخراب أن أجتـر هـذه التـأمـلات ،

أن الزمـان سيأتى حتما لينتزع منى حبيبى بعيدا .

هذه الفكـرة كالموت تمـاما ، لا تملك أن تختـار

سوى أن تبـكى علـى ما تخـاف مـن فقدانـه .

فإذا كنت قد تدربت على قبول منطق مجتمعنا ، فسوف تسأل :« لماذا كان عليه « أن يبكـى » للاحتفـاظ بحبه ؟ لماذا لا يستطيع أن يستمتع بحبه ؟ » وهكذا يدفعنا منطقنا دائما صوب التكيف .التكيف مع عالم مجنون ، وحياة مجنونة. بل والأسوأ من ذلك ، فـإننا نقطع على أنفسنا الطريق لفهم الأغوار العميقة للتجربة التى يعبّر عنها شكسبير فى تلك الأبيات .

كانت لنا جميعا مثل هذه التجارب ، ولكننا نميل إلى إخفائها . وقد نتأمل شجرة خريفية رائعة الجمال فى ألوانها الزاهية إلى درجة نشعر معها بأننا على وشك البكاء ؛ أو قد نسمع موسيقى غاية فى العذوبة فيغمرنا الحزن وهنا يتسلل

إلى شعورنا فكر القافلة بأنــه كان من الأفضل ألا نرى تلك الشجرة على الاطلاق ، وألا نسمع الموسيقى وعندئذ ماكنا نواجه تلك المفارقة غير المريحة .. ألا وهي معرفة أن « الزمان سيأتى لينتزع منى حبيبى بعيدا ، » وأن كل مانحبه مآله إلى الموت غير أن ماهية الكائن البشرى هى أننا فى تلك اللحظة القصيرة التى نوجد فيها على ذلك الكوكب الدوّار ، نستطيع أن نحب بعض الأشخاص وبعض الأشياء على الرغم من أن الزمان والموت سيطالبان بنا جميعا فى نهاية المطاف أما أننا نشتاق لإطالة هذه اللحظة القصيرة ولإرجاء موتنا عاما أو أكثر فشئ لا سبيل إلى فهمه بالتاكيد . غير أن مثل هذا التأجيل لا مفر من أن يصير إحباطا ومعركة خاسرة فى نهاية الأمر . غير أننا نستطيع بالفِعْل المُبْدع أن نصل إلى ماوراء موتنا ولهذا كان الابداع على هذا القدر من الأهمية ، وهو ما يجعلنا فى حاجة إلى مواجهة العلاقة بين الابداع والموت .

(٧)

فلنرجع إلى چيمس چويس James Joyce الذى يُذكر دائما فى معرض الاستشهاد بوصفه واحدا من أعظم الروائيين المحدثين . ففى نهايـــة روايته « صورة للفنان أثناء شبابه » A. Partrait of the Artist as a Young Man ، يجعل بطله الشاب يكتب فى يومياته : « مرحبا ، أيتها الحياة ! لقد خرجت للمرة المليون لألتقى بواقع التجربة ولأصوغ فى مكان الحدادة من روحى الضمير غير المخلوق لجنسى البشرى » .

يالها من عبارة ثرية عميقة ! « خرجت للمرة المليون لألتقى .... » وبعبارة

أخرى ، فإن كل لقاء خلاّق يعد حدثا « جديدا » ؛ وكل زمان يتطلب توكيدا آخر للشجاعة . وماقاله كيركجور عن الحب يصدق أيضا على الابداع : كل إنسان يجب أن يبدأ من البداية . ولقاء « واقع التجربة » هو بالتأكيد أساس كل إبداع ، والمهمة ستكون « الصياغة فى مكان الحدادة من روحى » كمهمة الحداد الشاقة حين يثنى الحديد الساخن المتوهج على المطرقة ليصنع منه شيئا ذا قيمة للحياة البشرية .

ولكن لاحظ على وجه الخصوص الكلمات الأخيرة : « لصياغة الضمير غير المخلوق لجنسي البشرى » . فهنا يقول چويس إن الضمير ليس شيئا جاهزا سلّم إلينا من جبل سيناء على الرغم من التقارير التى تذكر العكس ، إنه مخلوق أولا وقبل كل شئ من الإلهام المستمد من رموز الفنان وأشكاله فكل فنان أصيل منخرط فى خلق ضمير الجنس البشرى حتى وإن لم يكن (أو لم تكن) واعيا بهذه الحقيقة . وليس الفنان رجل أخلاق عن قصد واع ، وإنما ينصب اهتمامه فحسب على الاستماع والتعبير عن الرؤية الباطنة فى وجوده أو وجودها . غير أن الفنان يرى من خلال رموزه ويقوم بعملية الخلق - كما خلق چيوتو الأشكال لعصر النهضة - ولا يتشكل البناء الأخلاقى للمجتمع إلا فيما بعد .

لماذا كان الابداع على مثل هذه الصعوبة ؟

ولماذا يتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة ؟

أليس الأمر مجرد التخلص من الأشكال الميتة والرموز التى عفىّ عليها الزمان ، والأساطير التى خلت من الحياة ؟ كلا . إن استعارة چويس أدق من هذا

كثيرا : إنها من الصعوبة بحيث ينبغي أن تصاغ في مكان الحدادة من روح الانسان . والحق أننا نواجه هنا لغزا محيّرا .

ويسعفنا چورچ برنارد شو بشئ من العّون فبعد أن حضر حفلا موسيقيا أقامه عازف الكمان هايفيتس Heifitz ، كتب الخطاب بعد عودته إلى منزلـه :

« عزيزى السيد هايفيتس : بَهَرَتْنا زوجتى وأنا حفلتُك الموسيقية .. ولو أنك واصلت عزفك بمثل هذا الجمال لإخترمك الموت في شرخ الشباب بكل تأكيد ، ما من أحد يمكن أن يعزف بمثل هذا الكمال دون أن يثير غيرة الآلهة وأتوسل إليك – بكل جدية – أن تعزف شيئا بطريقةرديئة كل ليلة قبل أن تأوى إلى الفراش .... » .

ووراء كلمات شو الفكهة ، كما هي عادته دائما ، حقيقة عميقة هي أن الابداع يثير غيرة الآلهة . ولهذا يحتاج الابداع الأصيل إلى كثير من الشجاعة : **فهناك معركة نشطة تدور رحاها مع الآلهة .**

وليس في وسعى أن أعطيك تفسيرا كاملا لماذا كان الأمر على هذا النحو ؛ كل ما أستطيعه هو أن أجعلك تشاطرنى في خواطرى . فمن خلال العصور وجدت الشخصيات المبدعة الأصيلة نفسها دائما في مثل هذا الصراع .

وقد كتب ديجا Degas ذات مرة قائلا : « إن المصور يرسم اللوحة بنفس الشعور الذى يرتكب به المجرم جريمته . » وفي اليهودية والمسيحية تناشدنا الوصية الثانية من الوصايا العشر : « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض » (الكتاب المقدس – سفر الخروج – الاصحاح العشرون – آية ٤) . وأنا أعتقد أن الغرض الظاهر من هذه الوصية هو حماية الشعب اليهودي من عبادة الأوثان في تلك الأزمنة التي تفشت فيها الوثنية .

غير أن هذه الوصية تعبّر أيضا عن الخوف الذي لا يخص زمنا دون آخر ، والذي يعانيه كل مجتمع من فنانيه وشعرائه وقديسيه .ذلك أنهم هم الذين يهددون الوضع القائم Statusquo الذي يكرس كل مجتمع نفسه لحمايته . ويتضح ذلك الخوف أشد الوضوح في الصراعات الدائرة في روسيا للتحكم في أقوال الشعراء وأساليب الفنانين ؛ غير أن هذا أيضا يسرى على بلادنا ، وإن لم يكن صارخا بهذا الشكل . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذا التحريم الإلهي ، ورغم الشجاعة اللازمة لانتهاكها ، كرسّ عدد لا حصر له من اليهود والمسيحيين أنفسهم خلال العصور للتصوير والنحت ، ووصلوا في نقش الصور وانتاج الرموز في هذا الشكل أو ذاك . وكثير منهم مرّ بتجربة الصراع مع الآلهة .

وهناك طائفة من الألغاز الأخرى – ليس بوسعي إلا أن أذكرها دون تعليق – ترتبط بهذا اللغز الرئيسي . منها أن العبقرية والمرض النفسي متلازمان إلى حد كبير ومنها أن الإبداع يحمل في طياته شعورا بالذنب لا سبيل إلى تفسيره .ولغز ثالث هو أن كثيرا من الفنانين والشعراء ينتحرون ، وفي كثير من الأحيان يكون ذلك وهم في قمة إنجازهم .

وفيما كنت أحاول حل لغز الصراع مع الآلهة ، رجعت إلى الأنماط الأولية في تاريخ الحضارة البشرية ، إلى تلك الأساطير التي توضح كيف كان الناس يفهمون فعل الابداع . وأنا لا أستخدم كلمة « أسطورة » بالمعنى المنحط المبتذل الشائع في أيامنا على أنها « أكذوبة » . وهذا خطأ لا يمكن أن يقترفه إلا مجتمع أصبح منتشيا بتكديس الوقائع التجريبية بحيث يُحكم الإغلاق على الحكمة الأعمق في التاريخ الإنساني . فأنا أستعمل كلمة « أسطورة » من حيث أنها تعني عرضا دراميا للحكمة الأخلاقية التي صدرت

عن الجنس البشرى . والأسطورة تستخدم مجموع الحواس لا مجرد العقل وحده .

وفى المدنية الإغريقية القديمة نجد أسطورة بروميثيوس Prometheus وكان تيتانا (عملاقا) يقيم على جبل الأوليمب ، وقد رأى أن الكائنات البشرية لا يملكون النار فكانت سرقته للنار ومنحها للجنس البشرى علامة اتخذها الإغريق منذ ذلك الحين على أنها بداية المدنية ، لا فى الطهى وغزل المنسوجات فحسب وإنما فى الفلسفة والعلم والدراما والثقافة نفسها .

غير أن النقطة المهمة هى أن زيوس ثارت ثائرته ، وأصدر قراره بأن يعاقب بروميثيوس بتقييده إلى جبل القوقاز حيث يأتى نسر كل صباح ليلتهم كبده التى تنمو مرة أخرى أثناء الليل . هذا العنصر فى الأسطورة تصادف عَرضًا أن يكون رمزا واضحا على عملية الابداع . والفنانون جميعا يمرون فى وقت من الأوقات بهذه التجربة فى نهاية اليوم عندما يشعرون بأنهم مُجهدون مُستهلكون ، موقنون بأنهم لن يتمكنوا أبدا من التعبير عن رؤياهم فيقسمون على نسيانها وعلى البدء فى شئ غيرها صباح اليوم التالى ، ولكن « أكبادهم تنمو مرة أخرى» أثناء الليل ، فينهضون من فراشهم مفعمين بالطاقة والنشاط ، ويعودون إلى أداء مهمتهم بأمل متجدد ، ويجاهدون فى مكان الحدادة من أرواحهم .

وحتى لا يخطر على بال أحد أن أسطورة بروميثيوس يمكن أن تُنَحىّ جانبا بوصفها مجرد حكاية خرافية اخترعها الإغريق أصحاب المزاج الرائق ، دعونى أذكركم بأن هذه الحقيقة نفسها مذكورة فى التراث اليهودى

والمسيحي بالحرف الواحد تقريبا . وأنا أشير إلى أسطورة آدم وحواء فهي دراما ظهور الضمير الأخلاقي ، وكما يقول كيركجور بصدد هذه الأسطورة – والأساطيركلها – أن الحقيقة التي تحدث في الداخل تُعْرض وكأنها حدثت في الخارج . وأسطورة آدم يعاد تمثيلها في كل طفل بحيث تبدأ بعد شهور من مولده ثم تنمو لتصبح شكلا واضحا في سن الثانية أو الثالثة ، وإن كان ينبغي – من الناحية المثالية – أن تستمر في النمو بقية حياة الانسان . ويرمز أكل التفاحة من شجرة معرفة الخير والشر إلى فجر الوعي الانساني ؛ والضمير الأخلاقي والوعي مرادفان عند هذه النقطة .أما براءة جنة عدن – الرحم و«الوعي الحالم» (وهذه عبارة كيركجور) بالحمل والشهر الأول من الحياة ، فإنها قد تحطمت إلى الأبد .

ووظيفة التحليل النفسي هي أن يزيد من هذا الوعي ، وأن يساعد الناس حقا على الأكل من شجرة معرفة الخير والشر . ولا يدهشنا إذا كانت التجربة مفزعة لكثير من الناس كما كانت أسطورة أوديب ، ذلك أن أيـة نظرية« للمقاومة » تلغي فزع الوعي الانساني تعد قاصرة وخاطئة في أغلب الظن .

وبدلا من السعادة البريئة ، يعاني الطفل الآن مشاعر القلق والذنب، وفي شطر من ميراث الطفل ، هناك أيضا الاحساس بالمسئولية الفردية ، وأهم من هذا كله القدرة على الحب ، التي لا تنمو إلا مؤخرا . وجانب « الظل » من هذه العملية هو ظهور أنواع الكبت ، وبالتالي مايصاحبها من عُصاب (المرض العصبي النفسي) وهذا حدث فاجع بكل تأكيد ! فإذا سمّيت هذا « سقوط الانسان » فعليك أن تنضم الى هيجل وغيره من محللي التاريخ

المتعمقين الذين زعمـوا أنـها « سقطة إلى أعلى » . إذ أنه بدون هـذه التجربـة لن يكون هناك إبداع ولا وعى كما نعرفهمـا .

ومرة أخرى ، **غضب يهواه** . فطُرِد آدم وحواء من الجنة بواسطة ملاك يحمل سيفا مشتعلا . والمفارقة المزعجة التى تواجهنا هى أنه فى كل من الأساطير الإغريقية واليهودية – المسيحية يُعْرض الإبداع والوعي على أنهما وُلدا فى التمرد على قوة شاملة القدرة . هل علينا أن نستنتج من ذلك أن كلا من زيوس ويهواه – ذلكما الإلاهان الرئيسيان – لا يريد أن يكون للبشرية ضمير أخلاقي وفنون المدنية ؟ هذا سر بكل تأكيد .

وأوضح تفسير هو أنه لا بد للفنان المبدع والشاعر والقديس من أن يحارب الآلهة **الفعلية** (فى مضاد الآلهة المثالية) المهيمنين على مجتمعنا – إله النزعة الامتثالية Canformism ، وآلهة اللامبالاة ، والنجاح المادى والسلطة المُستغلّة . هذه هى « أصنام » مجتمعنا التى تعبدها جماهير الشعب غير أن هذه النقطة لا تتوغل بما فيه الكفاية لكى تقدم لنا إجابة على اللغز .

وفى بحثى عن شئ من الاستثارة ، رجعت إلى الأساطير لأقرأها قراءة متمعنة . فإكتشفت أنه فى أواخر أسطورة بروميثيوس توجد إضافة عجيبة : أن بروميثيوس يستطيع أن يتحرر من أغلاله وعذابه إذا تنازل له أحد الخالدين عن خلوده تكفيرا عن بروميثيوس . وهذا مافعله شيرون Chiron (وهو رمز جذاب آخر عن طريق المصادفة – نصفه حصان ونصفه الآخر إنسان واشتهر بحكمته ومهارته فى الطب وشفاء المرضى ، وقد انجب أسكليبيوس Asclepius (إله الطب) .

هـــذه الخاتمـــة للأسطـــورة تخبرنا بأن اللغز يرتبـط بمشكلـــة المـــوت .

والامر هو نفسه مع آدم وحواء . فعندما غضب يهـواه لأكلهما من شجرة معرفة الخير والشر صاح قائلا إنــه يخشى مـن أنهما سيأكلان مـن شجـرة الخلد ليصبحا « أشبه بنا » . وهكذا ! فإن اللغز يرتبط ارتباطا ما بمشكلة الموت ، الـذى تؤلف الحياة الأبدية جانبا من جوانبه .

وهكذا يتعلق الصراع مع الآلهة بصفة الفناء فينا ! والابداع يتشوف إلى الخلـود . فنحن الكائنات البشرية نعرف أننا سنموت حتما ومن العجب أن تكون لنا كلمـة عن المـوت ، فنحن نعـرف أن كـــلا منا ينبـغى أن ينمى الشجاعة لملاقاة المـوت ولكـن ينبغى أيضا أن نتمرد عليه وأن نحاربـه . ويأتى الابداع من هذا الصراع . ومن ذلك التمرد يتـولد فعل الابداع فليس الابداع مجرد تلقائيتنا البريئة التى تظهـر فى الطفولة والصبا ؛ وإنما ينبـغى أيضا أن يتزاوج مـع تطلعات الانسان الراشد ، والتى هى أن يحيا فيما وراء موته . ولعل تماثيل مايكـل أنجلو الناقصة التى تصور العبيد يمـوج بعضـهم فى بعض وهم يصارعون سجـونهم الحجرية ، أفضل رمز يلائم الوضع الانسانى .

(٨)

وحين أستخدم كلمـة « متمرد » للدلالة على الفنان . فـــأنا لا أشير إلى تلك الأشياء الثورية أو إلـى شئ من هذا القبيل مثل الاسـتيلاء على حـجرة العميد ، فهذه مسألة مختلفة . فالفـنانون بعامة أناس يتحدثون بصوت خفيض ناعم ولا يهتمون إلا برؤاهم وصورهم الباطنة . وهذا بالذات مايخشاه منهم

مجتمع القهر ذلك لأنهم حملة قدرة العصر الذهبى القديم للبشرية على الثورة ، وهم يحبون أن يندمجوا فى الفوضى ليصوغوا منها شكلا مثلما فعل الله الذى خلق الكون من الماء فى سفر التكوين ولأنهم لا يرضون أبدا عن المبتذل ، والرتيب والتقليدى تراهم يقتحمون دائما عوالم جديدة . ومن ثمّ فإنهم المبدعون « للضمير اللامخلوق للجنس البشرى » .

وهذا يتطلب قوة عارمة فى العاطفة ، وحيوية عالية المستوى . أليس ماهو حيوى معارضا للموت دائما وأبدا ؟ ونستطيع أن نصف هذه الشدة بأسماء كثيرة مختلفة : وأنا أختار كلمة « السخط » Rage . ويقول ستانلى كونيتس الشاعر المعاصر : « أن الشاعر يقرض أشعاره بدافع من سخطه » . هذا السخط ضرورى لإشعال عاطفة الشاعر ، لإظهار قدراته ، لتجميع بصائره المشتعلة فى نشوة الخلق ، حتى يستطيع أن يتفوق على نفسه فى قصائده . السخط موجه ضد الظلم الذى يوجد منه بالتأكيد قدر كبير فى مجتمعنا ولكنه فى نهاية المطاف السخط على النمط الأولى لكل سخط وهو الموت .

وهنا نستحضر الأبيات الأولى من قصيدة لشاعر معاصر آخر هو ديلان توماس Dylan Thomas عن وفاة أبيه :

« لاتدخل بلطف فى ذلك الليل الديجور

إذ ينبغى على الشيخوخة أن تحرق وتهاجم بعنف عند انتهاء النهار

بل كن ساخطا على احتضار النور » .

وتختتم القصيدة بهذه الأبيات :

« وأنت ياأبتاه ، هناك على الأعالى الحزينة

أتضرع إليك أن تلعنني وتباركني بدموعك العنيفة .

لا تدخل بلطف في ذلك الليل الديجور

بل كن ساخطا ، ساخطا على احتضار النور ».

لاحظ أنه يسأل عن مجرد البركة « إلعنني ...... بدموعك **العنيفة** » لاحظ أيضا أن ديلان توماس - وليس أبيه - هو الذى يكتب هذه القصيدة وعلى الأب أن يواجه الموت ويتقبله على نحو ما . أما الابن فهو الذى يعبر عن الروح الثائر الأبدى .. وكانت النتيجة هذه الرشاقة المؤثرة التى تتسم بها هذه القصيدة .

ولا يمت هذا السخط بأية صلة للمفاهيم العقلية التى نقف فيها خارج تجربة الموت لنقدم تعليقات موضوعية وإحصائية . فهذه المفاهيم تتعلق دائما بموت شخص آخر ، لا بموتنا نحن الخاص ونحن نعرف أن كل جيل ، سواء من أوراق الشجر أو الحشائش أو الكائنات البشرية أو أية أشياء حية لا بد أن يموت ليفسح المجال لولادة جيل جديد . وأنا أتحدث عن الموت بمعنى آخر. هذا طفل لديه كلب ، والكلب يموت وهنا يمتزج الحزن عند الطفل بغضب عميق.فإذا أراد شخص ما أن يشرح له الموت بطريقة موضوعية تطورية فيقول له إن كل شئ يموت ، والكلاب تموت أسرع من البشر .. فقد يصوّب لكماته إلى ذلك الشارح المفسرّ . فمن المحتمل أن الطفل يعرف هذا كله على كل حال وإنما يأتى إحساسه الحقيقي بالخسران والخيانة من أن حبه للكلب ووفاء الكلب له قد ضاع . فهذه هي التجربة الشخصية الذاتية للموت التى أتحدث عنها .

وكلما أوغلنا في العمر تعلمنا كيف يفهم كل منا الآخر . ومن حسن الحظ أننا نتعلم كيف نحب حبا حقيقيا وكل من الفهم والحب يتطلب حكمة لا تأتى إلا مع

الشيخوخة ، غير أنه فى قمة هذه الحكمة تكون عصارة الحياة قد جفت فينا فلا نعود نرى الأشجار تتحول إلى اللون الرمزى فى الخريف . ولم نعد نرى الحشائش وهى تبزغ من الأرض برقة فى الربيع إذ يتحول كل منا إلى مجرد ذاكرة تنوى عاما إثر عام .

وأصعب هذه الحقائق قد نظمتها شاعرة أخرى محدثة هى ماريان مور Marianne Moore فى هذه الأبيات :

مابراءتنا ، وما ذنبنا ؟
كلنا عرايا ، ولا أحد منا فى مأمن .
وأنىّ لنا بالشجاعة .....

وبعد أن تأملت الموت ، وكيف نستطيع أن نواجهه اختتمت قصيدتها على هذا النحو :

ومن ثم لا يتصرف إلا من
يشعر بقوة .
والطير يزداد طولا عندما
يغرد ، وحين يسرق
ينتصب جسمه .
ورغم أنه سجين
فإن غناءه القوى يقول :
إن الرضا شئ وضيع ،
وما أنقى الفرح .
هذا هو الغناء ،
وهذه هى الأبدية

وهكذا يوضع الغناء أخيرا مع نقيضه الأبدية فى ترنيمة متناوية .

(٩)

قد يرى كثيـــر من الناس أن ربط التمرد بالـدين حقيقة صعبة ذلك أنها تنطوي على المفارقة النهائية . ففي الدين ، لا ينتهي الأمر بمدح المتملقين أو الذين يتشبثون بأقصى ما يمكن من ولاء بالوضع الراهن . ولا يمتدح الدين إلا الثائرين .تذكروا كيف كان القديس والمتمرد شخصا واحدا في التاريخ البشري في معظم الأحيان . فكان سقراط متمردا وصدر ضده الحكم بشرب السم وكان المسيح متمردا ، ومن أجل هذا كان صلبه . وچان دارك كانت متمردة هي الأخرى وكان نصيبها أن تحرق في المحرقة . ومع ذلك فان هذه الشخصيات ومئات مثلهم . وإن اضطهدهم معاصروهم فقد اعترفت بهم العصـور التالية وعبدتهم بوصفهم أشخاصا أسهمـوا بأعظم الاسهامات المبدعة في الأخلاق والدين .

هؤلاء الذين نسميهم قديسين قد تمردوا على صورة للآلهة عفيّ عليها الزمان ولم تعد ملائمة على أســاس بصائرهم الجديدة عن الألوهيـة . وكانت التعاليم التي ساقتهم إلى حتفهم هـي التي رفعت من المستويات الأخلاقية والروحية في مجتمعاتهـم، وكانوا على علم بأن زيوس الإله الغيور المتربع على جبل الأوليمب لن يلبث طويلا متمتعـا بهذا السلطان . وأصبح بروميثيوس داعيا لدين آخر هو دين الرحمـة . وقـد تمرد هـؤلاء القديسون أيضا ضـد يهواه الالـه القبلي البدائي الذي عبده العبرانيون . واستمـد مجده من موت آلاف الفريسيين وحلت مكانه رؤى أموس وأشعياء وأرمياء عن إله الحب والعدالة . ودفعتهم إلى التمرد بصائرهم الجديدة في معنى الألوهية . تمردوا على حد تعبير پول تيليش الجميل - ضُد الاله الذي هو عبْر الإله . وهـذا الظهـور

المستمر للإله عبرْ الاله هو علامة على الشجاعة المبدعة فى مجال الدين . وأيا كان المجال الذى نوجد فيه ، فثمة سرور عميق يغمرنا حين ندرك أننا نساعد فى تشكيل بناء عالم جديد ، هذه هى الشجاعة المبدعة أيا كانت إبداعاتنا ضئيلة أو جزافية . عندئذ نستطيع أن نقول مع چويس : « مرحبا أيتها الحياة ! فها نحن نخرج للمرة المليون لكى نصوغ فى مكان الحدادة من أرواحنا الضمير غير المخلوق للجنس البشرى . »

* * *

الفصل الثانى

طبيعة الابداع

عندما نفحص الدراسات النفسية والكتابات التى تناولت الابداع خلال الأعوام الخمسين الماضية ، كان أول مايصدمنا ما تتصف به المادة من إملاق وما يشوب الاعمال من نقص وقصور . ففي علم النفس الأكاديمى بعد عهد وليم چيمس وخلال النصف الأول من هذا القرن، كان العلماء يتجنبون هذا الموضوع بعامة بحجة أنه موضوع لا علمى ، غامض ، مزعج ، وشديد الإفساد للتدريب العلمى الذى يتلقاه الخريجون من الطلاب . وعندما قام العلماء بعدد من الدراسات عن الابداع بالفعل عالجوا مناطق هامشية . بحيث شعر المبدعون أنفسهم بأنهم لا يمتون بصلة إلى الابداع الحقيقي . والحقيقة الأساسية هى أننا توصلنا إلى أنواع من تحصيل الحاصل أو الحقائق الخارجة عن الموضوع كان الفنانون الشعراء يبتسمون منها ويقولون : « هذا شئ طريف ، أجل ولكن ليس هذا ما يدور بأنفسنا أثناء فعل الابداع » . ومن حسن الحظ أن طرأ تغيير فى السنوات العشرين الأخيرة ، ولكن الحق أن الابداع مازال ابنا للزوجة أو الزوج بالنسبة لعلم النفس .

بيد أن الموقف كان أفضل قليلا بالنسبة للتحليل النفسى وعلم نفس

الأعماق Depth Psychology واستحضر هنا حادثا أعاد إلى نفسى منذ حوالى عشرين عاما التبسيطات المسرفة وقصور نظريات علم نفس الأعماق عن الابداع . ذات صيف كنت مسافرا مع جماعة تتألف من سبعة عشر فنانا نجوس خلال أوروبا الوسطى لدراسة الفن الريفي وتصويره . وبينما كنا في فيينا دعانا ألفرد آدلر Alfred Adler الذى أعرفه وحضرت مدرسته الصيفية إلى بيته لإلقاء محاضرة خاصة . وفي أثناء المحاضرة التي كان يلقيها في حافلة ردهية ، ألمح آدلر إلى نظريته التعويضية في الابداع وخلاصتها أن البشر ينتجون الفن والعلم والجوانب الأخرى من الثقافة لتعويض مواطن قصورهم . وكان يستشهد في كثير من الأحيان بمثل بسيط هو المحارة التى تنتج اللؤلؤة لتغطية حبة الرمل التي اقتحمت صدفتها . وكان صمم بيتهوفن واحدا من الأمثلة الكثيرة الشهيرة التي ضربها آدلر ليبين كيف يلجأ الأفراد المبدعون الممتازون الى الأفعال الابداعية لتعويض عيب فيهم أو نقص عضوى أصابهم . وكان آدلر يؤمن أيضا بأن المدنية أنشأها البشر لتعويض وضعهم الضعيف نسبيا على هذه القشرة الأرضية المعادية ، وقصورهم أنياب ومخالب فى المملكة الحيوانية . وعندما نسى آدلر تماما أنه يخاطب جماعة من الفنانين تلفت حواليه في الغرفة ثم قال: « ومادمت أرى أن قليلا جدا منكم يضعون نظارات ، فأظن أنكم غير مهتمين بالفن » وهكذا كان هذاالتبسيط المسرف لنظرية التعويض هذه عرضة لهذا العَرَض الدرامى !

غير أن لهذه النظرية بعض المزايا ، كما تعد أحد الفروض المهمة التى ينبغى أن يبحثها الطلبة فى هذا المجال .أما خطؤها فهو أنها لا تتناول العملية الإبداعية في ذاتها . فالميول التعويضية فى إرادة فرد ما يمكن أن تؤثر على الأشكال التى تتخذها إرادته الابداعية ، ولكن هذه الميول لا تفسر عملية

الابداع نفسها ، والاحتياجات التعويضية تؤثر على هذا الميل أو على الاتجاه في الثقافة أو العلم ، ولكنها لا تفسر خلق الثقافة أو العلم .

ولهذا تعلمت في وقت مبكر من مهنتي السيكولوجية أن أنظر بقدر كبير من الشك إلى النظريات الشائعة التي تفسّر الإبداع كما تعلمت دائما أن أسأل هذا السؤال : هل تتناول النظرية الأبداع في حد ذاته أم أنها تتناول صنعة ما ، أو مظهرا جزئيا هامشيا من العمل الابداعي ؟

وتتسم نظريات التحليل النفسي الشائعة عن الابداع بسمتين : الأولى ، أنها إحالية Reductive بمعنى أنها تحيل الابداع إلى عملية أخرى والثانية أنها تجعله تعبيرا خاصا عن النماذج العصابية neurotic والتعريف المألوف للإبداع في أوساط التحليل النفسي هو أنه « ارتداد في خدمة الأنا » وفي الحال تشير كلمة ارتداد إلى التناول الإحالي وأنا أختلف بشدة مع الرأي القائل بأن الابداع ينبغي أن يُفْهم بإحالته إلى عملية أخرى ، أو بأنه في جوهره تعبير عن مرض عصبي نفسي :

ويرتبط الابداع – بكل تأكيد – في ثقافتنا بالذات بمشكلات نفسية خطيرة – فهذا هو فان جوخ يعاني من الذّهان Psychotic ، وجوجان Gaugin يبدو أنه مصاب بالفصام ، وكانت فرجينيا وولف Virginia wolf تشكو من اكتئاب شديد، فمن الواضح أن الإبداع والأصالة مرتبطان بأشخاص لا يتكيفون مع حضارتهم بيد أن هذا لايعني بالضرورة أن الابداع « ناتج » عن الأمراض العصبية النفسية . وارتباط الابداع بتلك الأمراض يوقعنا في الورطة : فلو أننا استطعنا أن نشفي هؤلاء الفنانين من أمراضهم تلك بواسطة التحليل النفسي ، فهل يتوقفون عندئذ عن الابداع ؟ هذه القسمة الثنائية Dichotomy – وكثير غيرها – ينشأ عن النظريات الإحالية . وفضلا عن ذلك ، لو أننا كنا نبدع

بدافع من تحويل الأثر أو الحافز – كما هو الحال في التسامي Sublimation ، أو لو أن إبداعنا كان مجرد نتاج جانبي - by- product لمحاولة إنجاز شئ آخر ، كما هو الحال في التعويض ، ألا تكون لفعلنا الخلاّق مجرد قيمة زائفة ؟ ينبغي أن نتخذ موقفا متشددا حقا ضد التضمينات – أيا كانت الطريقة التي تتسلل بها – القائلة بأن الموهبة مرض وأن الابداع عُصاب .

١ – ماهو الابداع

عندما نقوم بتعريف الابداع ، يجب أن نميز بين الأشكال الزائفة من ناحية .. أعني الابداع بوصفه نزعة جمالية سطحية ، وبين شكلـه الأصيل أعني بوصفه عملية **إضـافـة شئ جـديد إلى الوجــود** ، مـن ناحـيـة أخـرى ، والتفـرقة الحاسمة هـي بين الفـن بـوصفه صنعة مثل « أداة » Artifice أو « اصطناعي » artful وبين الفن الأصيل .

وهذه تفرقة جاهد الفـنانون والفلاسفة خلال القرون جميعا لتوضيحها فأفلاطون – مثلا – انزل الشعراء والفنانين إلى الحلقة السادسة من الحقيقة لأنهم على حد تعبيره يتعاملون مع الظاهر لا مع الواقع نفسه (الذي هو الحقيقة عنده) . وكان يشير إلى الفن بوصفه زينة ، وطريقة لجعل الحياة ألطف ، وتعاملا مع المتشابهات Semblances ولكنه فيما بعد ، في محاورته البديعه ، المأدبة Symposium ، وصَف من أطلق عليـهم وصف الفنـانين الحقيقيين ، أي هؤلاء الذين ينشئون حقيقة جديدة . فهو يعتقد أن هؤلاء الشعراء وغيرهم من الأشخاص المبدعين هم الذين يعبّرون عن الوجود ذاته .أو كما أسـتطيع أن أصفـهم ، هم أولئك الذين يوسـعّون الوعي الإنسـاني وإبداعهم هو أعلى ظهـور أساسي يقوم به رجل أو امرأة لتحقيق وجوده أو

وجودهـا في العالم . والآن ينبغي أن نجعل التفرقة السابقة واضحة إذا أردنا أن تغوص أبحاثنا عـن الابداع إلى ماتحت السطح ، فنحن لا نتعرض للهوايات ، وحركات « إصنعها بنفسك » ، والرسم يوم الأحد، أو أية أشكال أخرى لملء أوقات الفراغ . ولم يكن ضياع معنى الابداع فاجعا بأشنع صورة إلا في الفكرة القائلة بأنه شئ لا تفعله إلا في عطلات نهاية الأسبوع .

وينبغي ألا نستكشف عملية الابداع بوصفها نتاجا للمرض ، وإنما بوصفها تمثل أعلى درجة من درجات الصحة العاطفية ، وتعبيرا عن أناس أسوياء أثناء فعل تحقيق أنفسهم في الواقع . وينبغي أن نرى الابداع في عمل العالم كما نراه في عمل الفنان ، وعند المفكر مثلما نجده عند الباحث في الجماليات ، كما ينبغي ألا نضيقّ مداه بحيث يُستبعد قادة التقنية الحديثة ، وكذلك علاقة الأم السوية بطفلها . فالابداع كما وصفه قاموس ويبستر Webster بحق هو أساسا عملية صنع Making أو اضافة Bringing into being شئ إلى الوجود .

٢ – العملية الابداعية

فلنبحث الآن في الطبيعة الابداعية ويكون البحث عن الأجوبة بمحاولة مايحدث بالفعل في الأفراد في لحظة الفعل المبدع وصفا دقيقا على قدر المستطاع . وسأتحدث في أغلب الوقت عن الفنانين لأنني أعرفهم ، واشتغلت معهم ، وأنا واحد منهم إلى حد ما . معنى هذا أنني أبخس قدر الابداع في الأنشطة الأخرى وأظن أن التحليل النفسي لطبيعة الابداع يمكن أن ينسحب على الرجال والنساء جميعا أثناء لحظات إبداعهم .

أول مـاتلاحـظـه فـى فـعل الابـداع أنه عـبـارة عن **مواجهة** . فـالفنانون يواجـهون المنظـر الذى يقتـرحـون رسـمـه . فـهم ينظـرون إليـه ، ويلاحـظونه من هـذه الـزاوية أو تلك . وهـم مسـتـغـرقون فـيه ، كـمـا نقـول عـادة أو قد تكون المواجـهـة مـع فـكرة فـى حـالة المصـورين التـجـريديين ، أو رؤيـة باطنة تكون بذورها منبعـثة مـن الألوان اللامعة على الباليت Palette أو على بياض قماش اللوحة الغفل الذى يدعو الفنان إلى العمل . وهنا تصبح الألوان والقماش والمواد الأخرى جـزءا ثانويا فى هذه المواجـهة فـهى لغـة هـذة المواجـهـة ، أو **الـوسط** Media بتعبير أدق . والعلماء يواجـهون التجربة التى سيقومون بإجرائها ، وواجبهم المعملى فى موقف مماثل أو مواجهة .

وربما تطلبت المواجهة أو لم تتطلب مجهودا اراديا ، أعنى « ارادة القوة » will power . وعلـى سبيل المثـال فإن اللعبـة الصحية التى يلعبـهـا طفل تتميز بكـل السمات الجوهـرية للمـواجـهة ، ونحن نعلـم أنهـا أحد الأنمـاط الأوليـة المهمـة لإبداع الشخص البالغ . والنقطة الأسـاسـيـة ليست هـى حضور المجهـود الارادى أو غيابه ، وإنما درجـة الاستغراق ، ودرجة الشـدة (وهذا ما سوف نتناوله تفصـيلا فيما بعد) ؛ ولا بد من وجود صفة خاصة هى **الالتزام** .

وهـنا نـأتى إلى تـفرقـة مـهمة بـين الابـداع الزائـف الهـروبى من ناحية وبين الابداع الحقيقى الاصيل من ناحية اخرى . **الابداع الهـروبى هو مـا يفتقر إلى المواجهة** . وقـد تمثـل لى هذا بوضـوح عندمـا كنـت أعـمل مـع أحـد الشـبـان فـى التـحليل النـفسى . وكـان هـذا الشـاب موهـوبا من الناحيـة المهنية ، ثريا متنـوعـا فـى إمكانياته الإبداعية ، ولكنه كان يتـوقف دائـمـا عن تحـقيق هذه الأمـكانيات ، فقد تخطر له بغتـة فكرة قـصة ممتازة

يظل يقلّب فى ذهنه خطوطها العريضة حتى أدق التفاصيل . وكان من الممكن أن يكتبها دون مزيد من الضجة ، و أن يستمتع ويتلذذ بنشوة التجربة ، ولكنه يتوقف عند هذا دون ان يكتب شيئا على الاطلاق ... وكأن التجربة لا تزيد على مجرد رؤية نفسه بوصفه شخصا يستطيع أن يكتب ، وكان على وشك أن يكتب ، وهى بهذا (أى التجربة) تنطوى فى داخلها على مايسعى إليه حقا وعلى جزائها الخاص بها . ومن ثمّ لم يبدع بالفعل أبدا .

وكان ذلك مشكلة محيرة لى وله وقد قمنا بتحليل كثير من جوانبها : كان أبوه كاتبا موهوبا إلى حد ما ولكنه منى بالفشل ؛ وصنعت أمه الكثير من كتابات أبيه ، ولكنها لم تظهر له سوى الاحتقار فى مجالات أخرى . ولما كان الشاب طفلا وحيدا ، فقد نال كثيرا من التدليل والحماية المفرطة من أمه ، وكثيرا ماكانت تؤثره على أبيه ، وذلك بتقديم أطعمة ووجبات خاصة له ، على سبيل المثال وهكذا كان من الواضح أن المريض دخل فى منافسة مع أبيه ، ومن يواجه تهديدا قاسيا إن هو نجح فى ذلك . قمنا بتحليل هذا كله وأكثر منه بشئ من التفصيل غير أننا كنا نشعر على كل حال بوجود حلقة مفقودة من التجربة .

وذات يوم حضر المريض ليعلن أنه قد توصل إلى كشف مثير. ففى مساء اليوم السابق تدفقت عليه بغتة أثناء القراءة الأفكار المبدعة التى تتدفق عليه عادة لكتابة قصة ، وأخذ متعته المعتادة من هذا التدفق فى واقع الأمر وانتابه فى الوقت نفسه إحساس جنسى غريب . وتذكر عندئذ أن هذا الشعور الجنسى يباغته دائما فى اللحظة التى يجهض فيها تلك الأفكار الخلاقة .

ولن أخوض فى التحليل المعقد لهذه التداعيات ، وهو التحليل الذى أثبت أن هذا الشعور الجنسى كان فى آن معاً رغبة للراحة وإشباعا حسيا من نوع سلبى ، ورغبة فى أن يكون موضعا لإعجاب لا مشروط من أية إمرأة ، كل ماأريد

أن أبّينه هو هذه النتيجة الواضحة من أن « انفجاراته » المبدعة للأفكار كانت وسائل لاكتساب الاعجاب والرضا من أمه ؛ وكان في حاجة إلى أن يبينّ لأمه ولغيرها من النسوة إلى أي حد هو شخص فاتن موهوب . فإذا ما فعل ذلك حين تتوارد عليه الرؤى الجميلة السامية يكون قد أنجز ما أراد . فهو لم يكن حريصا حقا في هذا السياق على الابداع ، وإنما أن يكون على وشك الابداع ، و في حالته تلك كان الابداع في خدمة شئ آخر تماما .

والآن ، أيا كان تفسيرك لأسباب هذا النموذج ، هناك ثمة مركزية واضحة ألا وهي أن المواجهة كانت مفقودة .أليس هذا هو ماهية الفن الهروبي ؟ كل شئ هناك ماعدا المواجهة وأليست هذه هي السمة المركزية لصنوف كثيرة من النزعة الاستعراضية الفنية Exhibitionism .أو مايسميه رانك « الفنان الناقص » Artiste manqué ؟ ولا نستطيع أن نضع تفرقة صحيحة إذا قلنا إن نوعا من الفن يكون عصابيا ، والآخر صحّيا سليما . من الذي يحكم بهذا ؟ كل مانستطيع أن نقوله هو أنه لا وجود لشئ من الالتزام بالواقع وليس هذا هو ما يسعى إليه الشاب ، كل مايريده هو أن تتقبله أمه قبولا سلبيا وأن تُعجب به وفي مثل هذه الحالات نتوخى الدقة حين نتحدث عن النكوص أو « التراجع » بمعناه السلبي . غير أن النقطة الحاسمة هي أننا نعالج شيئا مختلفا تمام الاختلاف عن الابداع .

ويمكننا مفهوم المواجهة أيضا من أن نضفي مزيدا من الوضوح على التفرقة المهمة بين الموهبة والقدرة الابداعية . وقد تكون للموهبة ارتباطاتها العصابية ومن الممكن دراستها على أنها « ممنوحة » لشخص ما . وقد يكون الرجل - أو المرأة - موهوبا سواء استخدم موهبته أو لم يستخدمها ؛ ومن الممكن أن تقاس الموهبة في شخص ما في حد ذاته .

أما الابداع فـلا يمكن أن يُرى إلا في الفعل فحسب وإذا أردنا أن نكون متزمتين ، لما تحدثنا عن « شخص مبدع » ، وإنما عن « الفعل المبدع » وحده دون شيء سواه وفي بعض الأحيان ، في حالة مثل حالة بيكاسو نكون بصدد موهبة عظيمة ومواجهة عظيمة في آن واحد ، وبالتالي نكون إزاء إبداع عظيم . وأحيانا أخرى نكون إزاء موهبة عظيمة ، وإبداعية مبتورة ، كما شعر كثير من الناس في حالة سكوت فيتزجيرالد Scott Fitzgerald .أو نكون إزاء شخص على درجة عالية من القدرة الإبداعية غير أن نصيبه من الموهبة ضئيل . وقد قيل عن الروائي توماس وولف Thomas Wolfe الذى كان من الشخصيات المبدعة في التاريخ الأمريكي إنه كان « عبقرية بلا موهبة » . ولكنه كان على هذه الدرجة العالية من الابداع لأنه كان يلقي بنفسه كلّية في مادته وفي تحدى التعبير عنها ، فكان عظيما للشدة التي اتسمت بها مواجهته .

٣ ـ شدة المواجهة

وهذا يؤدى بنا إلى العنصر الثاني في فصل الابداع .. وأعني به شدة المواجهة وكلمات **الاستغراق ، والانغماس في ، والالتزام الكامل** ..... الخ التي تستخدم عادة لوصف حالة الفنان أو العالم أثناء إبداعه ، أو حتى في حالة طفل أثناء لعبه . وبأى اسم نطلقه على الابداع ، فإنه يتميزّ بشدة في الوعي ، وارتفاع في حدة الشعور .

والفنانون ، وكذلك أنت وأنا ، في لحظات المواجهة الشديدة نعاني تغيرات عصابية بالغة الوضوح . وهذه التغيرات تشمل خفقان القلب

السريع ، وضغط الدم المرتفع ، والشدة المتزايدة ، وانقباض الرؤية مع تضييق في الجفون ، حتى نستطيع أن نرى المنظر الذى نرسمه بمزيد من الوضوح ؛ وننسى الأشياء التى حولنا (وكذلك مرور الوقت) . ونعانى من نقص في الشهية .. فالأشخاص الذين ينهمكون في فعل إبداعى يفقدون الاهتمام بالأكل في تلك اللحظة ، وقد يواصلون عند حلول تناول الوجبة دون ملاحظة ذلك . وكل هذا يواكب كبتا لوظائف القسم الباراسمبتاوى من الجهاز العصبى الذاتى (الذى يتعلق بالسهولة والراحة والتغذية) وتنشيطا للقسم السمبتاوى العصبى. وهنا نرى أنفسنا إزاء الصورة نفسها التى وصفها وولتر ب. كانون Walter B.Cannon بأنها ميكانيزم (أو آلية) « الهروب – القتال Flight-Fight » ، أى تنشيط طاقة الجسم استعدادا للقتال أو الهرب . هذا هو المتضايف العصابى الذى نجده – بحدوده العريضة – فى القلق والخوف .

بيد أن مايشعر به الفنان أو العالم المبدع **ليس** خوفا أو قلقا ، إنه **الفرح** . وأنا أستخدم هذه الكلمة في مضاد السعادة أو اللذة .الفنان فى لحظة الخلق لا يعانى الرضا أو الاشباع (وإن كان من الممكن أن يأتى ذلك فيما بعد ، عندما يحتسى كأسا من الخمر أو يدخن غليونا فى المساء) . فالأحرى أنه الفرح ، الفرح حين نعرفه بأنه الانفعال الذى يصاحب الوعى المرتفع ، والمزاج الذى يصاحب تجربة إخراج إمكانيات المرء إلى حيز الواقع الفعلى .

والآن فإن شدة الوعى هذه لا ترتبط بالضرورة بالقصد الواعى أو بالارادة فربما حدثت فى أحلام اليقظة أو فى أحلام النوم ، أو فى المستويات التى تُعرف باللاشعور . وقد روى أستاذ بارز من أساتذة نيويورك هذه القصة

الموضحة . كان يبحث عن معادلة كيميائية معينة حينا من الوقت ، ولكن دون أن يحالفه النجاح . وذات ليلة بينما كان نائما تكونت المعادلة وظهرت بارزة أمامه فاستيقظ من نومه ، وكتبها في الظلام – وهو في حالة من الانفعال – على قطعة من النسيج ، وهي الشئ الوحيد الذى استطاع أن يجده غير أنه لم يستطع في صباح اليوم التالي أن يقرأ الخرابيش التي خطها بيده . و في كل ليلة يذهب فيها إلي الفراش فيما بعد كانت آماله تتركز في أن يزوره ذلك الحلم مرة أخرى . ولحسن الحظ حدث هذا بعد بضع ليال ، ومن ثمّ كتب المعادلة بخط مقروء وكانت المعادلة التي بحث عنها ، والتي تلقىّ عنها جائزة نوبل .

ولاشك أننا تعرضنا جميعا لمثل هذه التجارب ، وإن لم تكن المكافأة على تلك الصورة الدرامية . والواقع أن عمليات التشكيل والصنع والبناء تستمر في أذهاننا حتى وإن لم نكن على وعى شعورى بها طيلة الوقت . وقال وليم چيمس ذات مرة أننا نتعلم السباحة في الشتاء ونتزحلق على الجليد في الصيف .

وسواء أردت أن تفسر هذه الظواهر على أساس تكوين معين للاشعور ، أو تؤثر أن تتبع وليم چيمس في ربطه لهذه الظواهر بعمليات عصبية معينة تستمر حتى دون أن نشتغل بها ، أوتفضل تناولا معينا آخر . كما أفعل أنا ، فما زال من الواضح أن الابداع يستمر في درجات متباينة من الشدة على مستويات لا تخضع مباشرة لتحكم الارادة الواعية . ومن ثمّ فإن الوعى المرتفع الذى نتحدث عنه لا يعنى على الاطلاق زيادة في الوعى الذاتي . والأحرى أنه يرتبط بالاستغراق والاندماج ، ويتطلب ارتفاعا للوعى في الشخصية بأكملها .

ولكن فلنبادر إلى القول بأن الاستبصارات اللاشعورية أو أجوبة المشكلات

التى تتراءى لنا في أحلام اليقظة لا تأتى صائبة حينا أو خائبة حينا آخر فربما حدثت حقا في أوقات الاسترخاء أو السرحان ، أو في أوقات أخرى حين يتناوبنا اللعب والعمل . غير أنه من الواضح وضوحا تاما أنها تنتمى إلى تلك المناطق التى اشتغل فيها المرء بوعى فى اجتهاد وتكديس والقصد (أو الغرض) في الانسان ظاهرة أشد تعقيدا بكثير عما تعودنا أن نسميه « إرادة القوة » . القصد يشمل كل مستويات التجربة ولكننا لا نستطيع أن ننسوى أن تكون لنا استبصارات . ولانستطيع أن « ننوى » الابداع بيد أننا نستطيع أن ننوى تسليم أنفسنا للمواجهة بشدة في التكريس والالتزام . وهنا تنشط الجوانب الأعمق من الوعى إلى درجة يكون فيها الشخص ملتزما بالمواجهة .

كما ينبغى أن نشير أيضا إلى أن هذه « الشدة في المواجهة » ليست هى ما نطلق عليه الجانب الديونيزوسى من الابداع . وسوف تجد كلمة « ديونيزوسى » هذه مستخدمة كثيرا في الكتب التى تتناول الأعمال الإبداعية . ولما كانت هذه الكلمات مشتقة من اسم الإله الأغريقي للسكر والعربدة وغيرهما من أشكال النشوة ، فإنها تشير إلى اندفاع الحيوية ، والاستغراق في اللذة التى اتسمت بها مستويات القصف والفجور القديمة للإله ديونيزوس Dionysus ، ويذكر نيتشه في كتابه المهم : « مولد المأساة » The Birth of Tragedy المبدأ الديونيزوسي عن تدفق الحيوية ، والمبدأ الأبولوني للشكل والنظام العقلاني بوصفهما المبدأين الجدليين اللذين يتحكمان في الابداع . وهذا التقسيم الثنائي يفترضه كثير من الطلبة والكتاب .

أما الجانب الديونيزوسي للشدة فيمكن دراسته من وجهة نظر التحليل النفسي دون صعوبة تذكر ، وأغلب الظن أن كل فنان تقريبا قد حاول في وقت

من الأوقات أن يرسم وهو تحت تأثير الخمر، وما يحدث عادة هو مايتوقعه المرء في مثل هذه الأحوال، وهو يحدث متناسبا مع مـقدار الخمر التي تجرعها الفنان - أن يعتقد الفنان أنه قام بعمل رائع، أفضل كثيرا من المعتاد حقا - ولكن الواقع الفعلي، حين ينظر إلى الصورة في صباح اليـوم التالي، فإنه يجد أن أداءه كان حقاً أقل من المعتاد. ولا ريب أن فترات الوجد الديونيزوسية قيّمة، وبخاصة في مدنيتنا الآلية حيث يتضور الابداع والفنون جميعا جوعا حتى المـوت بواسطة روتين الساعة المثقوبة، وحضور الاجتماعات التي لا تنتهي، وضغوط انتاج كميات أكبر من الأوراق والكتب، وهي ضغوط قد اجتاحت العالم الأكاديمي اجتياحا أشد هلاكا من اجتياحها للعالم الصناعي. وإني لأشتاق إلى الآثار الصحية للمراحل التي انتشرت فيها أعياد الكرنفالات ولا تزال في بلدان الشرق الأوسط.

غير أن شدة الفعل الابداعي ينبغي أن **تـرتبط بالمواجـهـة ارتباطا موضوعيا**، لا أن تنطلق بمجرد شئ « يتناوله » الفنان. وقد تكون الخمر عاملا مُسَكّنا، وربما ضرورية في مدنية صناعية؛ ولكن عندما يحتاجها المرء بصورة منتظمة لكي يشعر بالتحرر من ألوان الكبت، فإنما يضل في تسمية المشكلة فالحق أن القضية هي لماذا توجد صنوف الكبت هذه في المقام الأول والدراسات السيكولوچية لفوران الحيوية والآثار الأخرى التي تحدث عند تناول مثل هذه العقاقير شائقة إلى أبعد حد؛ ولكن لابد من أن يميز المرء تمييزا فاصلا بين هذا كله وبين الشدة التي تصاحب المواجهة نفسها فليست المواجهة مجرد شئ لأننا قد تغيرنا نحن أنفسنا من الناحية الذاتية، وإنما لأنها تمثل - بالأحرى - علاقة حقيقية مع العالم الخارجي.

والجـانب المهـم والعمـيق فـي المبدأ الـديونيزوسي هـو الـوَجْـد

(أو النشــــوة ecstasy). ففى أحضــان العــربدة والقــــصف الديونيزوسى تطورت الدراما الإغريقية ، تلك القمة الفخـمة من الابداع التى حققت وحدة **الشكل والعاطفة مع النظام والحيويـة .**

وموضوع « الوجد » هو الموضوع الذى ينبغى أن نوليه مزيدا من الإنتباه الايجابى فى علم النفـــس . وأنــا لا أســتخـدم هـذه الكلـمـة بالـطبع لا بمعناها الشـائع المسترخـص الذى هو « الهيستريا » Hysteria وإنمـا بمعـــناها التـاريخــى الاشتـقـاقـى Ex-stasis ، أعـنى بمعنـــاها الحـــرفى « الخـــروج من » (Stand out from) أى التحرر من الانقسام المألـــوف بين الذات والموضـوع ، وهو القسمــــة الثنائية الدائمـة فى معظم النشــــاط الانسانى .الوجـد هـو المصـطلح الدقـيق لشـدة الوعى التى تحدث فـــى الفعـل الابداعى ولكــن لا ينبغى أن نفكر فيه بوصفــه « سماحا بتحرير شئ مـا » بالمعنى الباخـوسى ؛ وإنما هو شئ يشـمل الشخـص كلـــه بحـيث يعمـــل ما تحت الشعور واللاشـــعور فى وحــــدة مع الشعور . ومـن ثمّ فهـو ليـس **لا عقلانيا** Irrational ؛ بل الأحـرى أن يكون فـائقا علـى مـاهو عقلــى Suyaratianal . فـهـو يمزج بين الوظـائف العـقليـة ، والارادية ، والعاطفيـــة فى عمـل واحد معاً .

وقـد يبـدو مـا أقوله غـريبا فى ضـوء علم النفس التقليدى الأكاديمى ولابـد أن يبـدو غـريبا . ذلك أن علـم نفسنا التقليـدى تأسس على القسمة الثنائية بين الذات والموضـوع التى كانت المركزية فى الفكر الغـربى خلال القرون الأربعة الماضية . وقد وصــف لودڤيج بنسفانجر Ludwig Binswanger هذه القسمة الثنائية بأنها « سرطان علم النفس والعلاج النفسى جميعا حتى

الآن » . (١) ولم يكن من المستطاع أن تتجنبها النزعة السلوكية Behauarism أو النزعة الإجرائية Operatianalism ، إذ تقوم كلٌ منهما بتعريف التجربة بالمصطلح الموضوعي وحده فحسب . كما أنها لا تُتجنَّب بعزلة التجربة الابداعية بوصفها ذاتية بحتة .

وما برحت معظم المدارس السيكلوچية وغيرها من المدارس الفكرية الحديثة تفترض هذه القسمة الثنائية دون وعي بها . وكنا ننحو إلى نضع العقل في مضاد الأنفعالات ، وافترضنا نتيجة لتضخم زائد في هذه القسمة أننا نتمكن من ملاحظة شئ أكثر دقة لو استبعدنا انفعالاتنا .أعني أننا سنكون أقل تحيزا لو أن انفعالاتنا لم تتدخل على الاطلاق في الموضوع الذى بين أيدينا . وأنا أعتقد أن هذا خطأ فادح إذ توجد الآن معطيات في استجابات رورشاخ Rorschach تشير – على سبيل المثال – إلى أن الناس يستطيعون أن يلاحظوا بمزيد من الدقة إذا كانوا مدفوعين بانفعالاتهم . أعنى أن العقل يعمل بطريقة أفضل في حضور العواطف ؛ فالانسان يرى ببصر أكثر حدة ودقة حين تشترك العواطف والحق أننا لا نستطيع أن نرى شيئا رؤية حقيقية إلا إذا كنا مرتبطين به ارتباطا عاطفيا . فربما كان العقل يؤدى عمله على أحسن وجه في حالة الوجد

---

١) لودفيج بنسفانجر في كتابه : « الوجود : بعد جديد في علم النفس والعلاج النفسى » بالاشتراك مع رولومای وإرنست إنچل وهنرى ف . إلنبرجر (نيويورك ، ١٩٥٨) ، ص ١١

Ludwig Binswaner, in Existence : A new Dimensian in psychology and psychiatry,eds. Rallo May, Ernest Angel and Henri F.Ellenberger (New York , 1958) p.11.

ولابد أن يكون كل من العنصر الديونيزوسي والأبوللوني مرتبطا أحدهما بالآخر. والحيوية الديونيزوسية تستند إلى هذا السؤال : ماهي طريقة المواجهة التي تحرر الحيوية ؟ ماهي العلاقة بين المشهد أو الرؤية الباطنة أو الفكرة التي ترتفع من درجة الوعي ، وتجاب في طياتها الشدة ؟

٤ - المواجهة في علاقتها المتبادلة مع العالم

وأخيرا نصل في تحليلنا للفعل الابداعي في حدود السؤال : ماهي هذه المواجهة العنيفة « مع » ؟ المواجهة هي دائما إلتقاء بين طرفين ، الطرف الذاتي هو الشخص الواعي في الفعل الابداعي نفسه . ولكن ، ما هو الطرف الموضوعي في هذه العلاقة الجدلية ؟ سألجأ إلى استخدام مصطلح يبدو غاية في البساطة : إنه مواجهة الفنان أو العالِم **للعالَم** . وأنا لا أعني العالَم بوصفه « البيئة » أو « مجموع » الأشياء ؛ كما لا أشير إلى جميع الموضوعات التي تتعلق بذات معينة .

والعالم هو نموذج العلاقات ذات المعنى التي توجد فيها الشخص و في المخطط الذي يشارك فيه . ولهذا المخطط واقع بكل تأكيد غير أن المسألة ليست بهذه البساطة . ذلك أن العالم في تبادل دائم للعلاقات مع الشخص في كل لحظة فثمة عملية جدلية مستمرة تجرى بين العالم والذات ، وبين الذات والعالم ؛ وكل منهما يتضمن الآخر ، ولايمكن فهم أحدهما إذا استبعدنا الآخر. ولهذا لا يمكن للمرء أبدا أن يحدد موضع الإبداع بوصفه ظاهرة **ذاتية** ؛ كما لا يستطيع المرء أن يدرسها أبدا في حدود مايجرى داخل الشخص . ومن ثم فإن العالم بوصفه قطبا يمثل جزءا لا ينفصل عن إبداع الفرد وما يجرى هو عملية دائما ، **فعل** - وبخاصة عملية يتفاعل فيها الشخص مع عالمه .

أما كيف يوجه الفنانون عالمهم فيوضحه عمل كل مصور مبدع حقيقي ومن بين الأمثلة الكثيرة الممكنة لهذا سنختار المعرض الرائع لرسومات موندريان Mondrian الذى أقيم في متحف جوجنهايم Guggenheim في نيويورك من ١٩٥٧ – ١٩٥٨ . فمن أعماله الواقعية الأولى التى رسمها في ١٩٠٤ و ١٩٠٥، مرورا حتى نصل إلى مستطيلاته ومربعاته الهندسية المتأخرة في الثلاثينات ، يستطيع أن يراه المرء مكافحا للعثور على الأشكال الكامنة وراء الموضوعات ، وبخاصة الأشجار التى كان يرسمها. ويبدو أنه كان يعشق الأشجار. أما اللوحات التى رسمها في عام ١٩١٠ والتى بدأت على نحو ما أشبه بسيزان Cezanne فإنها تتوغل شيئا فشيئا في المعنى الكامن في الشجرة ، فالجزع يصعد عضويا من الارض التى ولجت فيها الجذور ، والفروع تنحنى وتميل داخل الاشجار والتلال القائمة في الخلفية على نحو تكعيبى ، بحيث تبيّن بيانا جميلا الماهيــة الكامنة للشجرة في نفوس الغالبية العظمى منا . ونرى موندريان بعد ذلك يناضل في مزيد من التعمق ليجسد « الأشكال الأساسية » Ground Forms للطبيعة . وهذه الأشكال يقل أخذها من الشجرة ، ويزيد اقترابها من الأشكال الهندسية الأبدية الكامنة وراء الواقع بأسره ثم نراه أخيرا يندفع في إصرار لا تراجع فيه نحو المستطيلات والمربعات التى هى الشكل النهائى للفن المجرد الخالص . لا شخصى ؟ بكل تأكيد فالذات الفردية قد ضاعت تماما ولكن أليس هذا بالضبط إنعكاسا لعالم موندريان – عالم عقدىْ العشرينات والثلاثينات – العالم في المرحلة التى ظهرت فيها الفاشية والشيوعية، ونزعة الامتثالية والسلطة العسكرية – وهى المرحلة التى لم يشعر فيها الفرد بالضياع ، بل بأنه ضائع فعلا مغترب عن الطبيعة وعن الآخرين ، مثلما هو

مغترب عن نفسه أيضا ؟ وتعبّر لوحـــات موندريان عن القـــوة المبدعة في مثل هذا العالم ، فهـــي توكيد رغم « ضياع » الفرد . وبهذا المعنى يكون عمله بحثا عن أسـاس الفردية الذي يمكن أن يصـمـد في وجـه هذه التطورات السـيـاسـية اللاإنسانية .

ومـن العـبث أن نرى ببسـاطة أن الفـنانين « يرسـمـون الطبـيـعـة » وكـأنـهم مـجـرد مصـوّرين فـوتـوغـرافيين خـارج زمـانهم يلتقطون صـورا للأشـجـار والبـحيرات والجبـال . فـالطبـيعة بالنسبـة لـهم ليست سـوى « وسـط » Medium ، ولغـة يكشـفون بهـا عـن عـالمهـم . وما يفعله المصورون الأصلاء هو الكشف عن الظروف النفسـية والروحية الكامنة وراء صلتهم بالعـالم ؛ وهكذا نجد في أعمال المصوّر العظيم إنعكاسا للوضع العاطفي والروحي لبني البشر في تلك المرحلة من التـاريخ . ولو شـئت أن تفـهم المزاج النفـسي والروحي لأية مرحلة تاريخية ، فلا شئ أفضل من أن تمعن النظر باحثا وتتمعن طويلا في فن تلك المرحلة . فـفي الفـن يتـم التـعبـيـر عن المعنى الروحـي الكـامن للمـرحلة تعـبـيـرا مـبـاشـرا فـي الرمـوز، وليس ذلك لأن الفنانين مـربون أو أنـاس نذروا أنفسهم لتعليم الناس ، أو للدعاية ؛ بل إنهم بقدر مايفعلون ذلك ، تتحطم قدرتهم على التعبير ؛ إذ أن علاقتهم المباشرة بغير المنطـوق ، أو إن شئت بالمسـتويات « اللاشعورية » من الثقافة يصيبها الدمار . فهم يملكون القدرة على الكشف عن معنى أية مـرحلة بالضبط لأن مـاهية الفن هي المواجهة القوية الحية بين الفنان وبين عالمه .

ولم تستبن هذه المواجهة بصـــورة لا تحتاج إلى فضل بيان كما بانت في المعرض الذي أقيم لأعمال بيكاسو في الاحتفال بعيد ميـــلاده الخامس والسبعين في نيويورك عام ١٩٥٧ . ولأن بيكـــاسو أرحب مزاجا من موندريان ،

فإنه يعد بلا منازع المتحدث لعصره وحتى فى أعماله المبكرة حوالى ١٩٠٠ ، فقد كانت موهبته الهائلة قيد النظر . و فى لوحاته الواقعية الخشنة للفلاحين والفقراء فى العقد الأول من هذا القرن فإن علاقته الحميمة بالمعاناة الانسانية تبدو جلية واضحة . ومن ثمّ ، فإن باستطاعتك أن تشاهد المزاج الروحى للعقود المتوالية فى أعماله .

ففى العشرينات الأولى- على سبيل المثال - نجد أن بيكاسو يرسم الشخصيات الإغريقية الكلاسيكية ، وبالذات المستحمين والمستحمات على شاطئ البحر . وعلى هذه اللوحات فى المعرض تحوم هالة من النزعة الهروبية . ألم تكن العشرينات هى العقد الذى أعقب الحرب العالمية الأولى ، وهى فى الواقع فترة من النزعة الهروبية فى العالم الغربى ؟ وعند نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات تحول هؤلاء المستحمين على شاطئ البحر إلى قطع من المعدن ، قطع آلية ، من الصلب الرمادى الضارب إلى الزرقة الذي يتخذ شكل منحنيات .لوحات جميلة حقا ، ولكنها لا شخصية ولا إنسانية وهنا يصاب المرء فى هذا المعرض بتنبؤ مشئوم ينقبض له الصدر .. التنبؤ ببداية العصر الذى سيتحول فيه الناس إلى أرقام لا شخصية متموضعة وكان هذا التنبؤ المنحوس ببداية « الانسان ، الآلة » .

ثم فى ١٩٣٧ جاءت اللوحة العظيمة جرنيكا Guernica بأشخاص تمزقوا إلى أشلاء وتبعثروا بعضهم عن البعض الآخر ، وكلهم يرتدون ثيابا إما بيضاء ناصعة ، أو رمادية ، أو سوداء لقد كانت غضبة بيكاسو المتوجعة ضد اللا إنسانية التي اتسمت بها الغارة الجوية على المدينة الأسبانية العزلاء« جرنيكا » والتى قامت بها الطائرات الفاشية أثناء الثورة الأسبانية ؛ ولكنها أكثر كثيرا من ذلك .إنها أوضح تصوير يمكن أن يتخيله المرء لحالة المعاصرة الممزقة المتشرذمة

المفتتة إلى ذرات ، كما تنطوى على نزعة الامتثالية والشواء والقنوط التى تتمشى مع هذا كله . و فى أواخر الثلاثينات والأربعينات أخذت لوحات بيكاسو تقترب أكثر فأكثر شبيها بالآلة .. وتحول الناس صراحة إلى معادن . وشاهت الوجوه ، وكأن الأشخاص والأفراد لم يعد لهم وجود ، وإنما احتلت أماكنهم ساحرات بشعات ولم تعد اللوحات **تحمل أسماء** ، بل مجرد أرقام والألوان المشرقة التى كان الفنان يستخدمها في مراحله المبكرة والتى كانت تبعث البهجة في النفوس ، اختفت الآن فى معظم الأحيان ، وفى حجرات المعرض ، يشعر المرء وكأن الظلام قد خيم على الأرض في الظهيرة . وكما يخرج المرء من روايات كافكا ينتاب المرء شعور بالقسوة والانقباض من تسرب الانسانية من الفرد الحديث ، وفى المرة الأولى التى شاهدت فيها هذا المعرض ، غمرتنى الصورة المشئومة للكائنات البشرية التى تفقد وجوهها ، وفرديتها ، وإنسانيتها ، والتنبؤ بمجئ الانسان الآلى ، بحيث لم استطيع مواصلة النظر ، وهرعت خارجا من الحجرة عائدا إلى الشارع مرة أخرى .

ومن الممكن أن يكون بيكاسو قد احتفظ خلال مسيرته كلها بسلامته العقلية حين أخذ « يلعب » برسوماته وتماثيله المنحوتة للحيوانات ، ولأطفاله . ولكن من الواضح أن التيار الرئيسى هو تصوير وضعنا الحديث ، وهو ما صوره من الناحية النفسية كل من ريزمان Riesman وممفورد Mumford وتيليش Tillich وغيرهم . ويؤلف هذا كله صورة لا سبيل إلى نسيانها للانسان الحديث فى عملية فقدانه لشخصيته وانسانيته .

وبهذا المعنى يرتبط الفنانون الحقيقيون بعصرهم إلى درجة أنهم لا يستطيعون أن يتواصلوا منفصلين عنه . وبهذا المعنى أيضا يخضع الابداع

للموقف التاريخي ويتأثر به ! ذلك أن الوعي الذي يكتسب في الابداع ليس هو المستوى السطحي لعملية التعقل المتموضعة objectified ولكنه مواجهة مع العالم على مستوى يلغي القسمة الى ذات وموضوع . ولاعادتنا تعريفنا للابداع بألفاظ أخرى نقول إن «الابداع هو مواجهة الانسان الواعي بشدة مع عالمه » .

* * *

الفصل الثالث

الابداع واللاشعور

ليس منا من لم يستخدم من حين إلى آخر تعبيرات مثل : « وبغتة انبثقت فكرة »أو « جاءت فكرة على نحو غير متوقع » أو « هبطت » أو « جاءت وكأنها من حلم » أو « فجأة خطرت لي » .هذه طرائق متنوعة لوصف تجربة مشتركة : إنطلاق الأفكار من عمق كامن تحت سطح الوعي . وسأطلق على هذا المجال اسم « اللاشعور » بوصفه جامعا لماتحت الشعور Subconscious ، وماقبل الشعور Preconscious ولأبعاد أخرى تحت مستوى الوعي .

وعندما استخدم كلمة « اللاشعور » ، فأنا أعني بالطبع من حيث أنها إختزال . فلا وجود لشئ هو « اللاشعور » ، بل هو بالأحرى الأبعاد اللاشعورية(أو الجوانب أو المصادر Sources) في التجربة . وأنا أعرف هذا اللاشعور بوصفه **إمكانات الوعي أو الفعل التى لا يستطيع الفرد تحقيقها فى الواقع أو التى لن يحققها** . هذه الامكانات هى مصدر ما يمكن أن نسميه « بالابداع الحر » . وارتياد ظواهر اللاشعور له علاقة خلاّبة بالابداع . فما هى طبيعة الابداع وملامحه التى تستمد مصدرها في تلك الأعماق اللاشعورية من الشخصية ؟

— ١ —

أود أن نبدأ إرتيادنا لهذا الموضوع بأن أقص حدثا وقع فى تجربتى عندما كنت طالبا متخرجا أقوم بالبحث عن « معنى القلق » The meaning of Anxiety ، درست القلق فى طائفة من الأمهات غير المتزوجات وكنّ شابات حوامل في أواخر سن المراهقة Teens وأوائل العشرينات من أعمارهن يعشن في ملجأ الحماية Shelter home في مدينة نيويورك . (١) وكنت قد توصلت إلى افتراض قوى سليم عن القلق يَرْضى عنه أساتذتى ، وأرضى أنا عنه وهو أن الاستعداد السابق أو القابلية للقلق فى الأفراد يتناسب مع درجة رفض أمهاتهم لهم . وكان هذا الفرض مقبولا بوجه عام فى التحليل النفسى وعلم النفس وافترضت أن قلق أمثال هاتيك النسوة الحوامل يمكن أن نتتبع حالاتهن ابتداء من الموقف المنشئ للقلق . من حيث أنهن غير متزوجات وحوامل فى الوقت نفسه ، وعندئذ أستطيع أن أدرس المصدر الأصلى لقلقهن – وأعنى به رفض الأمومة – فى مزيد من الصراحة .

وهنا اكتشفت أن نصف هؤلاء النسوة يصلحن لافتراضى على نحو بديع .أما النصف الآخر فلم يكن يصلح له على الاطلاق . وهذا النصف الأخير كان يضم نسوة من هارلم ومن « الجانب الشرقى الأدنى » Lawer East Side وكانت أمهاتهن قد رفضنهن رفضا قاطعا . وكانت إحداهن – وسأسميها هيلين –

---

(١) كان ذلك فى منتصف الأربعينات عندما كانت المرأة الحامل غير المتزوجة ظاهرة شائنة أكثر من الآن بكثير .

تنحدر من أسرة تتألف من إثنى عشر طفلا طردتهم أمهم من المنزل فى أول أيام الصيف للاقامة مع أبيهم ، ويعمل مشرفا على مركب لنقل البضائع عبر نهر الهدسون . وكانت هيلين قد حملت من أبيها ، وأثناء إقامتها فى « الملجأ » كان يقيم فى سجن سينج سينج متهما باغتصاب لشقيقة هيلين . وكانت هيلين تقول لى مثلما تقول مثيلاتها من هذه المجموعة ، « نواجه متاعب ، ولكننا لا نعبأ » .

كان هذا شيئا فى غاية من الغرابة بالنسبة لى ، وقضيت وقتا طويلا لكى أصدق هذه المعلومات . غير أن الحقائق كانت تبدو واضحة ويقدر ما أستطيع أن أقوله استنادا إلى اختبارات رورشاخ Tat (اختبار تفهم الموضوع) *، وإلى اختبارات أخرى استخدمتها – لم تكن هؤلاء النسوة المرفوضات رفضا قاطعا يتحملن أية درجة غير عادية من القلق . وعندما طردتهن أمهاتهن من المنزل ، اتخذن أصدقاء هن ببساطة من شباب الحى الذى يعشن فيه . وبالتالى لم يكن هناك الاستعداد السابق أو القابلية Predisposition للقلق الذى توقعناه وفقا لما نعرفه فى علم النفس .

كيف يكون هذا ؟ أتكون المرأة المرفوضة التى لم تعان القلق قد أصبحت متحجرة ، متبلدة الحس بحيث لم تشعر بالرفض ؟ تبدو الاجابة على هذا أنها « كلا » بكل وضوح . هل كنَّ أنماطا مرضيةً نفسيا ، أو مرضية إجتماعيا ، وليست لهن تجربة فى القلق ؟ كلا ، هذه المرة أيضا ، وأحسست بأننى وقعتُ أنا نفسى فى مشكلة لا حل لها .

---

* وهو الاختصار بالحروف الاولى Thematic Apperceptian Test

وذات يوم ، في ساعة متأخرة ، نحيّت كتبي وأوراقي جانبا في المكتب الصغير الذي كنت أشغله في ذلك الملجأ ، وسرت في الشارع صوب نفق المترو كنت مُجهدا ، فحاولت أن أزيح عن ذهني هذه المسألة المتعبة برمتها وبعد حوالي خمسين قدما من المدخل الذي يؤدي إلى محطة المدرسة الانجليزية ، خطر على بالي فجأة أن هؤلاء النسوة اللواتي لا ينسحب عليهن فرضي **ينتمين جميعا إلى طبقة البروليتاريا** . وما أن هبطت هذه الفكرة على رأسي . حتى تدفقت أفكار أخرى .. وأظن أنني لم أخط خطوة أخرى في مسيرتي الجانبية حتى تكونّ فرض آخر بأكمله في عقلي . وأدركت أن نظريتي كلها يجب أن تتغير ورأيت في هذه اللحظة أن رفض الأم لابنتها ليس هو الصدمة الأولى التي كانت مصدرا للقلق ؛ وإنما هي **الرفض الذي يدور حوله الكذب** .

كانت الأمهات المنتميات إلى طبقة البروليتاريا يرفضن أطفالهن ، غير أنهن لم يكن يعترفن بهذا . الأطفال يعرفون أنهم مرفوضون ، ويتسكعون في الشوارع ويجدون رفقاء ورفيقات آخرين .لم يكن هناك أي خداع في موقفهم . وكانوا يعرفون عالمهم – سواء كان سيئا أو حسنا – ويستطيعون أن يواجهوا أنفسهم فيه . أما بنات الطبقة المتوسطة فكانت عائلاتهن تكذب عليهن دائما وكانت أمهاتهن ترفضنهن وهن يتظاهرن بحبهن كان هذا بحق هو مصدر قلقهن ، لا مجرد الرفض ورأيت في هذه الطريقة اللحظية التي تتسم بها الاستبصارات النابعة من تلك الأغوار العميقة أن القلق **يأتي من عدم استطاعتك معرفة العالم الذي تعيش فيه ، من عدم قدرتك على توجيه نفسك في وجودك الخاص** .واقتنعت هناك وأنا في الشارع ، وازددت إقتناعا– بالفكر والتجربة اللذين أعقبا ذلك – بأن هذه النظرية أفضل وأدق ، وأكثر إتساقا .

— ٢ —

ماذا كان يجرى في تلك اللحظة التى انبثقت فيها هذه النظرية ؟ لو اتخذنا التجربة التى طرأت لى كبداية ، لاحظنا أولا وقبل كل شئ أن هذه البصيرة اقتحمت عقلى الواعى ضد ما كنت أحاول التفكير فيه بطريقة عقلانية . كانت في حوزتى دعوى سليمة صحيحة وكنت أجتهد في محاولة إثباتها غير أن اللاشعور تدخلّ **معترضا على الاعتقاد الواعى الذى كنت أتشبث به .**

وكان كارل يونج Carl Yung يشير في كثير من الأحيان إلى أن هناك إستقطابا ، نوعا من التضاد بين التجربة اللاشعورية وبين الشعور . وكان يعتقد أن العلاقة بينهما تعويضية : الشعور يتحكم في أهواء وتقلبات اللاشعور الوحشية اللامنطقية ، بينما يحافظ اللاشعور على ألا يجف الشعور في العقلانية المبتذلة الخاوية القاحلة . وهذا التعويض يعمل أيضا على مشكلات خاصة : فلو أننى كنت عاكفا بوعى ومتوغلا في اتجاه واحد بالنسبة لقضية ما ، فإن لاشعورى يميل إلى الاتجاه الآخر ، وهذا بالطبع هو السبب الذى يجعلنا نقاتل قتالا قطعيا (دجماطيقيا) مسرفا من أجل فكرة حين نكون منقسمين على أنفسنا لاشعوريا بشكوك تساورنا حول هذه الفكرة . وهذا أيضا هو السبب الذى يجعل أشخاصا مختلفين مثل القديس بولس على طريق دمشق والسكير في الحانة تعتريهم تلك الانقلابات الروحية المباغتة ذلك أن الجانب اللاشعورى المكبوت في الجدل العقلى يبتهج (اذا جاز لى هذا التعبير) بهذا التفجير والتدمير لكل ماتتمسك به بصرامة في تفكيرنا الواعى .

وليس ما يحدث في هذا البزوغ هو مجرد النمو ، بل هو شئ أشد دينامية

بكثير . وهو ليس مجرد اتساع في الوعي ، بل الأحرى أنه نوع من المعركة . فثمة صراع دينامي يجري داخل شخص ما بين ما يفكر فيه عن وعي من ناحية ، وبين شيء من البصيرة ، أو المنظور الذي يناضل لكي يولد ، من ناحية أخرى . وبعدئذ تولد البصيرة ممتزجة بالقلق والشعور بالذنب ، وبالفرح والرضا اللذين لا ينفصلان عن إخراج فكرة جديدة أو رؤية إلى حيز الواقع .

والشعور بالذنب الذي يكون عندما يحدث هذا البزوغ Break.through (أو الانبثاق) مصدره هو أن البصيرة لا بد أن تدمر شيئا ما . بصيرتي دمرت افتراضي الآخر ، وسوف تدمر ما كان يعتقده عدد من أساتذتي ، وهذه حقيقة شغلتني إلى حد ما . فأينما يكون ثمة بزوغ لفكرة ذات دلالة في العلم ، أو بشكل جديد مهم في الفن ، فإن الفكرة الجديدة تدمر ما يعتقد كثير من الناس أنه جوهري لبقاء عالمهم العقلي والروحي . هذا هو مصدر الشعور بالذنب في العمل الخلاق الأصيل وكما لاحظ بيكاسو ، « كل فعل من أفعال الابداع هو في المقام الأول فعل من أفعال الهدم » .

وهذا البزوغ يحمل في ثناياه أيضا عنصرا من عناصر القلق فهو لم يهدم افتراضي السابق فحسب ، بل زعزع علاقتي بعالمي الذاتي أيضا . وفي مثل هذه الأوقات أجدني ملزما بالبحث عن أساس جديد ، لا أدرى عن وجوده شيئا . وهذا هو مصدر الشعور بالقلق الذي يأتي في لحظة البزوغ ؛ وليس من الممكن أن تظهر فكرة جديدة دون حدوث هذا الاهتزاز بدرجة ما .

وعبر هذا الشعور بالذنب والقلق – كما ذكرت آنفا – هناك ذلك الشعور الرئيسي الذي يصاحب البزوغ وهو شعور الرضا . لقد رأينا شيئا جديدا وغمرنا الفرح .... فرح مشاركتنا فيما يسميه علماء الفيزياء والعلوم باسم « تجربة الرشاقة » (أو الروعة) Elegance .

— ٣ —

شئ ثانٍ حدث في بزوغ هذه البصيرة وهو **أن كل شئ حولي أصبح بغتة واضحا كل الوضوح** . و في استطاعتي أن أتذكر أنه في الشارع المعينّ الذي سرت فيه كانت المنازل مطليةً بأخضر باهت قبيح بحيث آثرت أن أنسى ذلك فورا ، وهذا شئ سويّ . غير أنه بفضل وضوح هذه التجربة ، صارت الألوان جميعا من حولي أكثر حدة وانطمست في تجربتي ، وما برح ذلك الأخضر القبيح حاضرا في ذاكرتي و في اللحظة التي انبعثت فيها تلك البصيرة ، تغلّف العالم بنوع خاص من الشفافية واكتسبت رؤيتي وضوحا خاصا . وأنا مقتنع بأن هذا هو المصاحبة المعتادة لانبثاق التجربة اللاشعورية في الوعي . وهنا نجد مرة أخرى شطرا من السبب الذي يجعل التجربة تفزعنا إلى هذا الحد : فالعالم سـواء في الداخل أو الخارج يكتسب شدة يمكن أن تكون طاغيةً لفترة من الزمن . وهذا جانب واحد مما نسميه « الوَجْد » — أعني التوحيد بين التجربة اللاشعورية وبين الشعور ، وهو اتحاد لا يكون مجردا ، بل هو اندماج دينامي فوري .

وأحب أن أؤكد على أنني لم أحصل على بصيرتي وكأنما كنت أحلم ، مع بقائي أنا والعالم من حولي في حالة من العتمة والضباب . وهناك تصور خاطئ شائع بأن الادراك يكون بليدا حين يمر بهذه الحالة من البصيرة ، غير أنني أعتقد أن الادراك الحسي يكتسب بالفعل مزيدا من الحدة ومن الحق أن جانبا منه يشبه الحلم من حيث أن الذات والعالم يصبحان أشبه بالكاليدوسكوب (أو المشكال) ، غير أن هناك جانبا آخر من التجربة هو الادراك الحسي الحاد ، والوضوح

والشفافية في علاقتنا بالأشياء المحيطة بنا .إذ يصبح العالم جليا لا سبيل إلى نسيانه . وهكذا يقتضى بزوغ المادة من الأبعاد اللاشعورية ارتفاعا في التجربة الحسية .

ونستطيع بكل تأكيد أن نقوم بتعريف التجربة كلها التى نتحدث عنها بأنها **حالة من الوعى الحاد** . واللاشعور هو بُعْد الأعماق للشعور ، وعندما ينبثق إلى الشعور في هذا النوع من الصراع الاستقطابي ، تكون النتيجة تقويةً الوعي . فلا يرفع من قدرة المرء على التفكير فحسب ، بل يضفى مزيدا من الرهافة والحدة على العمليات الحسية ، وهو يعمل على تقوية الذاكرة بكل تأكيد .

ثمة شيء ثالث نلاحظه عند حدوث مثل هذه البصائر وهو أن البصيرة لا تخطئ ولا تضل أبدا ، وإنما تأتى **وفقا لنموذج أحد عناصره الجوهرية هو التزامنا الخاص نفسه** . والانبثاق لا يأتى بمجرد أن « نأخذ الأشياء برفق » ، و« بأن ندع اللاشعور يقوم بصنعه » والأحرى أن البصيرة تتولد من المستويات اللاشعورية في المناطق التى نكون فيها شعوريا أشد ما نكون التزاما . وقد واتتنى البصيرة عن تلك المشكلة في اللحظة التى كنت قد طرحت فيها كتبى وأوراقي بعيدا في ذلك المكتب الذى كنت أحتله ، تلك المشكلة التى كرست لها أفضل فكرى الواعي النشط ومعظمه . وجاءت الفكرة ، الشكل الجديد الذى فرض حضوره بغتة .. **جاءت لتكمل صيغة (جشتالت Gestalt) ناقصة كنت أتصارع معها في إدراكى الواعى** ويستطيع المرء أن يتحدث بدقة عن هذا الجشتالت الناقص ، هذا النموذج الذى لم ينته ، هذا الشكل الذى لم يتشكل بوصفه مكونًا « للنداء » الذى أجاب عليه اللاشعور .

والسمة الرابعة لهذه التجربة هي أن البصيرة تأتى في لحظة انتقال بين العمل والاسترخاء ، فهي تأتى في فترة الراحة في مراحل بذل المجهود الإرادى وقد وافتنى هذه الانبثاقة عندما نحيت كتبى وكنت أتمشى متجها صوب النفق ، وذهنى بعيد كل البعد عن هذه المشكلة . ويبدو كأن التقليب الشديد للمشكلة ، والتفكير فيها ، ومصارعتها يبدأ ويدفع عملية التفكير إلى الاستمرار : غير أن شطرا من النموذج الذى يختلف عما أحاول العمل فيه هو المجاهدة لكي يولد الحل . ومن ثمّ كان ذلك التوتر الذى ينطوى عليه النشاط الخلاّق . ولو أننا كنا متصلبين أكثر من اللازم وقطعيين ، أو مقيدين بالنتائج السابقة فلن ندع هذا العنصر الجديد يظهر في شعورنا أبدا ، ولن ندع أنفسنا تدرك أبدا تلك المعرفة التى توجد فينا على مستوى آخر . غير أن البصيرة لا يمكن أن تولد في كثير من الأحيان إلا بعد أن يسترخى التوتر الواعى ، والتناول الواعى . ومن هنا كانت تلك الظاهرة المعروفة بأن البزوغ اللاشعورى يتطلب تناوبا بين العمل الشعورى المكثف وبين الاسترخاء ، بحيث تحدث البصيرة اللاشعورية - كما كان الأمر في حالتى - في اللحظة الانتقالية في معظم الأحيان .

وقد سأل ألبرت آينشتين Albert Einstein أحد أصدقائى في برنستون ذات مرة : « لماذا تواتينى أفضل أفكارى في الصباح أثناء حلاقتى ؟ » وأجاب صاحبى ، كما حاولت أن أقول هنا : إن العقل يحتاج في كثير من الأحيان إسترخاء من الضغوط الباطنة - أن يتحرر في أحلام الليل أو أحلام النهار - وذلك حتى يتيح الظهور للأفكار غير المألوفة .

— ٤ —

فلنبحث الآن في تجربة أشد تعقيدا وثراءً من تجربتي ، تجربة واحد من أعظم الرياضيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو چول هنري بوانكارية Gules Henri Poincaré . ففي سيرته الذاتية يخبرنا بوانكارية بوضــوح يدعو إلى الاعـجـاب ، كيف كانت تخطر له استبصاراته ونظرياته الجديدة ، ويصف في جلاء الظروف التي أحاطت بإحدى « انبثاقاته » .

« خمسة عشر يوما وأنا أجاهد لإثبات أنه لا يمكن أن توجد أية دوال شبيهة بتلك التي أطلقت عليها منذ ذلك الحين دوال« فوكس » Fuchsian funchtians وكنت حينذاك جاهلا أشد الجهل ؛ ففي كل يوم كنت أجلس إلى مكتبي فأمكث ساعة أو ساعتين ، محاولا إجراء عدد كبير من التركيبات دون أن أبلغ أية نتيجة وذات يوم ، وعلى خلاف عادتي ، احتسيت قدحا من القهوة السوداء ، فلم أستطع النوم ، وتصاعدت الأفكار في حشود متزاحمة ، وشعرت بها تتصادم حتى تلاحم زوجان من هذه التركيبات ليؤلفا توليفة ثابتة . ومـــا أن أشـرق صـبـاح اليوم التالي حتى كنت قد برهنت على وجود فئة من الدوال الفوكسية ، وهـــي الــتي تأتي من المجموعات فوق – الهندسية Hypergeometric ولم يتبق أمامي ســوى أن أسجل النتائج ، ولم يستغرق هذا العمل سوى بضع ساعات (٢) .

---

(٢) هنري بوانكارية ، « الابداع الرياضي » من كتابه أساس العلم « Faundation of Science ترجمة چورج بروس هالستد في « عملية الابداع » الناشر Brewester Grhiselin (نيويورك ، ١٩٥٢)

وكان لم يزل شابا ، فاستُدعِيَ للخدمة العسكرية ، وظل بضعة أشهر لا يحدث في تفكيره شيئ . وذات يوم ، كان على وشك أن يستقل حافلة في إحدى مدن جنوب فرنسا ، وهو يتبادل الحديث مع جندى آخر . وما كاد يضع قدمه على درجة السلم – وهو هنا يحدد اللحظة بالضبط – حتى بزغ بغتة في عقله الجواب على كيفية ارتباط هذه الدوال الرياضية الجديدة التي اكتشفها بالرياضة التقليدية التي كان يعمل بها من قبل . وعندما قرأت تجربة بوانكاريه التي وَقَعت بعد الحدث المذكور آنفا - الذي جرى في حياتي – صدمني مدى التماثل في هذه الدقة الخاصة والوضوح . وصعد بوانكاريه السلم ، ودخل الحافلة ، وواصل بلا توقف محادثته مع صديقه ، ولكنه كان مقتنعا تماما وفوريا بالطريقة التي ترتبط بها تلك الدوال بالرياضيات العامة .

ولنستمر في قسم آخر من ترجمته الذاتية بعد عودته من الخدمة العسكرية : « صرفتُ انتباهي بعد ذلك إلى دراسة المسائل الحسابية دون نجاح يذكر ، ودون أية شبهة في اتصالها بأبحاثي السابقة . وحين أصابني الاشمئزاز من إخفاقي ذهبت لقضاء أيام قلائل على شاطئ البحر ، واتجهت بتفكيري إلى شيئ آخر وذات صباح أثناء سيرى على جُرُف عالٍ ، خطرت لي الفكرة بنفس سمات الايجاز والمباغتة واليقين الفوري ، وهي أن التحولات الحسابية للصيغ التربيعية الثلاثية غير المحددة مطابقة مع أشكال الهندسة اللا إقليدية . » (٣)

وهنا يسأل بوانكارية وقد تحول إلى نفساني في هذه اللحظة .. يسأل نفسه السؤال الذي وضعناه آنفا : ماذا يجرى في العقل بحيث تنبثق هذه الأفكار في هذه اللحظة ؟ وإليكم ما يقترحه للإجابة على سؤاله :

---

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٧ .

« إن أول ما يدهشني هو الظهور المباغت لهذه الاستنارة ، هذه العلاقة الجلية على عمل طويل لا شعوري سابق . والدور الذي يقوم به هذا العمل اللاشعوري في الاختراع الرياضي شئ لا جدال فيه ، ومن الممكن العثور على آثاره في حالات أخرى يكون فيها أقل وضوحا . وكثيرا ما يعمل المرء في مسألة صعبة ، ولكنه لا يتمكن من إنجاز شئ طيب من الهجمة الأولى ؛ ثم يلجأ إلى الراحة طالت أو قصرت ، ثم يجلس من جديد للعمل . و في أثناء نصف الساعة الأول ، لا يعثر على شئ ، كما كان الحال من قبل وعلى حين غرة تعرض الفكرة الحاسمة نفسها على العقل . وربما قيل إن الجهد الواعي كان أكثر لأنه انقطع وقتا ما ، وأن الراحة أعادت إلى الذهن قوته ونضارته . (٤)

أيكون ظهور الاستنارة راجعا إلى التخلص من التعب ، أعني مجرد الاخلاد إلى الراحة ؟ يجيب بوانكارية : كلا .

« من الأرجح أن هذه الراحة كانت ممتلئة بالعمل اللاشعوري ، وأن نتيجة هذا العمل قد كشفت عن نفسها فيما بعد لعالم الهندسة كما هو الحال في الحالات التي ذكرتها ، وكل ما في الأمر ، أن هذا التجلي بدلا من أن يأتي أثناء المشي أو رحلة قد حدث أثناء فترة من العمل ، ولكن مستقلا عن هذا العمل الذي يقوم بدور الحافز ، وكأنه المهماز المنبّه للنتائج التي تم التوصل إليها فعلا أثناء الراحة ، ولكنها بقيت لا شعورية ، لكي تتخذ الشكل الواعي » (٥)

ثم يواصل بتعقيب آخر ثاقب الفكر على الجوانب العملية للانبثاق فيقول :

---

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٨
(٥) المرجع السابق

« ثمة ملاحظة أخرى لابد من ذكرها عن شروط هذا العمل اللاشعوري : فمن الممكن ، ويقينا هو شئ مثمر ، إذا سبقه من ناحية وأعقبه من ناحية أخرى بمرحلة من العمل الواعي . فهذه الالهامات المفاجئة (والأمثلة التي ذكرناها فعلا تكفي لاثبات ذلك) لا تهبط أبدا إلا بعد بضعة أيام من الجهد الإرادي الذي يبدو لا مجديا على الاطلاق ، وحين لا يأتي مطلقا شئ له قيمة ويبدو أن المرء قد ضل طريقه تماما . هذه الجهود نتبين أنها لم تكن عقيمة كما يتبادر إلى ذهن المرء ؛ ولكنها ظلت تدفع الآلة اللاشعورية إلى الاستمرار في العمل ، وبدون تلك الجهود لم تكن هذه الآلة لتتحرك ، ولا كانت أنتجت شيئا على الاطلاق . (٦)

فلنحاول تلخيص أهم النقاط التي وردت آنفا في شهادة بوانكارية فهو يرى سمات التجربة كالآتي :

(١) صنعة المباغتة في الاستنارة ؛ (٢) أن البصيرة قد تحدث ، وهي لا بد أن تحدث إلى حد ما في مضاد ماتمسك به المرء عن وعي من النظريات ؛ (٣) وضوح الحدث والمشهد الذي يحيط به كله؛ (٤) **إقتضاب ودقة** البصيرة مع اليقين الفوري من التجربة . وتكملة للشروط العملية التي يذكرها بوصفها ضرورية لهذه التجربة هناك (٥) العمل الشاق على موضوع البحث **السابق على الإنبثاق** ؛ (٦) فترة من **الراحة** يتاح فيها « العمل اللاشعوري للتقدم بطريقته الخاصة التي يحدث بعدها الانبثاق (وهي حالة خاصة متفرعة من النقطة العامة) " (٧) ضرورة التناوب بين العمل والاسترخاء ، بحيث تأتي البصيرة غالبا في لحظة الانقطاع بين الحالتين ، أو على الأقل خلال تلك اللحظة .

هذه النقطة الأخيرة مهمة بوجه خاص وهي شئ من المحتمل أن كل إنسان قد

---

(٦) نفس المرجع السابق .

تعلمه : فالأساتذة يحاضرون بمزيد من الالهام إذا تناوبوا بين وجودهم في الفصل وخروجهم إلى شاطئ البحر من حين إلى آخر ؛ والمؤلفون يكتبون كتابة أفضل لمدة ساعتين – كما إعتاد ماكولىMacoulay أن يفعل – ثم يقذفون حلقات الرمي ، ليعودوا بعد ذلك لكتابتهم . ولكن من المؤكد أن الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد التناوب الآلى .

وأظن أن هذا التناوب في يومنا هذا بين مكان السوق والجبل يتطلب القدرة على **الاستخدام البناء للعزلة** .إنه يتطلب أن نكون قادرين على الانسحاب من عالم « شديد الوطأة علينا » ، أن نكون قادرين على إلتزام الهدوء بحيث ندع العزلة تعمل من أجلنا وفينا . ومن خصائص زماننا أن كثيرا من الناس يخشون العزلة : فأن يكون المرء وحيدا هذه علامة على أنه فاشل إجتماعيا ، إذ لا يمكن أن يكون المرء وحيدا إذا كان يستطيع أن يقدّم يد العون . وكثيرا ما يخطر لى أن الناس الذين يعيشون في مدينتنا الحديثة المحمومة ، وسط الضجيج الدائم الذى ترسله الاذاعة والتليفزيون مستسلمين لكل أنواع المنبهات سواء كانت من الصنف السلبي كالتليفزيون ، أو من الصنف الأكثر إيجابية كالمحادثة والعمل والنشاط ، هؤلاء الناس الذين تحاصرهم المشاغل الدائمة يجدون مشقة بالغة في أن يدعوا الاستبصارات تنبثق من أعماق اللاشعور . وبالطبع حين يخشى الفرد من اللامعقول ، أعنى من الأبعاد اللاشعورية للتجربة ، فإنه يحاول أن يكون في أشد حالات الانشغال ، ويحاول أن يحتفظ بأقصى ضجة ممكنة من حوله. ومحاولة تجنب القلق الناجم عن العزلة باللجوء إلى التلهية المثيرة الدائمة هي ما يشبهه كيركجور – تشبيها بديعا – بالمستوطنين في الأيام الأولى لأمريكا الذين اعتادوا الضرب على الصواني والحلل اثناء الليل ليحدثوا من الضجة ما يكفي لطرد الذئاب بعيدا عنهم .

ومن الجلى أننا إذا شئنا أن تطفو إلينا الاستبصارات من لا شعورنا ، فإننا بحاجة إلي أن تكون قادرين على الاستسلام للعزلة .

وأخيـر يتسـاءل بوانكاريه : مـا الذى يحـدّد بزوغ هذه الفكرة المعـينة من اللاشعور ؟ لماذا هذه البصيرة المعينة هى أدق إجابة تجريبية ممكنة ؟ كلا . هذا هو مايجيب به بوانكاريه . أيكون ذلك لأن هذه البصيرة هى ما يمكن أن تنجح من الناحية البرجماتية ؟ كلا هذه المرة أيضا وما يقترحه بوانكاريه بوصفه العنصر الانتقائى الناتج عن هذه البصيرة المعينة يبدو لى على نحو من الأنحاء أهم نقطة وأحكمها فى تحليله كله :

« التـركيـبـات المفـيدة (التى تبزغ من اللاشـعـور) هـى بالضـبـط أجملها ، أعنى أقدرها على إمتاع تـلك الحساسية الخاصة التى يعرفـها الرياضيون جميعا ، والتى يجهلها غيرهم جهلا تاما بحيث يغريهم بالابتسام عليها ....

ومن بين الأعـداد الكبـيرة من التوليفـات التى صنعت عشـوائيا بواسطة الذات المتسـامية ، يظل معظمها بلا أهمية وبلا نفع ؛ وهذا هو السبب عينه بالضبط الذى يجعلها أيضا دون تأثير على الحساسية الجمالية . ولن يدركها الوعى أبدا ؛ ولا يتسم بالانسجام سوى بعض منها ، وبالتالى ، تكون فى الحال مفيدة وجميلة . وتكون قادرة على المساس بهذه الحساسية الخاصة لرجل الهندسة التى تحدثت عنها آنفا ، والتى إن أثيرت مرة ، فسوف تجذب الانتباه إليها ، ومن ثمّ تتيح لها الفرصة لكى تصبح واعية . (٧)

---

(٧) نفس المرجع ، ص ٤٠ .

وهـذا هو الـذى يدعو الرياضـيين والفيزيائـيين للحـديث عن « جماليات » نظرية ما Elegance . والمنفعة تأتى فى المرتبة الثانية كجـزء من صفة الجمال فالانسجام الذى يسرى فى شكل داخلى ، والاتساق الباطن فى نظرية ما ، وسمة الجمال التى تمس حساسيات المرء .. هذه كلها عوامل دالة تحدد سبب ظهور فكرة معينة . وبوصفى محللا نفسيا لا أستطيع سوى أن أضيف أن تجربتى فى مساعدة الناس ليصلوا إلى بصائر تكشف عن هذه الظاهرة وهى أن البصائر لا تبزغ أساسا لأنها « صادقة عقليا » أو لأنها مفيدة ، ولكن لأن لها شكلا معينا ، شكلا جميل لأنه يكمل « الجشتالت » (الصورة) الناقصة .

وعندما يحدث هذا الانبثاق للبصيرة المبدعة فى الوعى ، نكتسب هذا الاقتناع الذاتى بأن الشكل ينبغى أن يكون على هذا النحو لا على ذاك . فمـن الســمات المميزة للتجـربة المبدعـة أنـها تصـدمنا على أنـها حـق مع هذا « اليقين المباشر » الذى تحدث عنه بوانكاريه . ونعتقد بأنه لا وجود لشئ آخر يمكن أن يكون حقيقيا فى ذلك الموقف ونتعجب لماذا كنا بهذا الغباء بحيث لم نره من قبل . والسبب بالطبع هو أننا لم نكن مهيأين نفسيا لرؤيته ولم نكن نستطيع بعد أن نقصد تلك الحقيقة الجديدة أو الشكـل المبـدع فى الفـن أو فى النظـرية العلمية .لم نكن متفتحين بعد على المستوى القصدية Intentionality غير أن « الحقيقة » نفسها كانت ببساطة - وهذا يذكرنا بما دأب البوذيون من طائفـة « زن » على ترديده - وهو أنه فى تلك اللحظات تنعكس وتتجلى حقيقة الكون لا تعتمد على ذاتيتنا الخاصة وحدها ، وكأن الأمر لا يزيد على كون عيوننا مغمضة ثم نفتحها بغتة ، لنجد الحقيقة أمامنا كأبسط ماتكون . ولهذه الحقيقة الجـديدة شئ من صفة الثبات والأبدية . والتجـربة التى مؤداها « أن هذه هى

الحقيقة وأنه من العجيب أننا لم نرها بسرعة مـن قبل ، قد تكون لها صـفة دينية مع الفنانين . وهذا مايدعو كثيرا مـن الفـنانين أن يشعروا بأن ثمة شيئا مقدسا يحدث حين يرسمون ، ثمة شئ في فعل الابداع أشبه بالوحى الدينى .

— ٥ —

والآن نبحث بعض المعضلات التي تنشأ من العلاقة بين اللاشعور وبين التقنيات والآلات . فما من مناقشة للإبداع واللاشعور في مجتمعنا تستطيع أن تتجنب هذه المشكلات الصعبة المهمة .

نحن نحيا في عالم سيطرت عليه الميكنة بدرجة عالية تدعو إلى الدهشة . والظواهر اللاعقلية اللاشعورية تشكلّ دائما تهديدا لهذه الميكنة . وقد يكون الشعراء مخلوقات تبعث البهجة في المروج والمراسم ، ولكنهم يمثلون أخطارا على مستوى نظام التجميع Assembly line . ذلك أن الميكنة تتطلب المشابهة ، والانتظام ، والقابلية للتنبؤ ؛ أما هذه الحقيقة بالذات التي تؤكد أن الظواهر اللاشعورية تتصف بالأصالة واللامعقولية ، فهذا يجعلها بالفعل تهديدا محتوما للنظام والمشاكلة البورجوازيين .

هذا سبب من الأسباب التى دفعت الناس في مدنيتنا الغربية الحديثة إلى الخوف من التجربة اللاشعورية اللاعقلية .ذلك أن الإمكانات التي تصعد إليهم من الآبار العقلية الأعمق لا تتلاءم ببساطة مع التكنولوجيا التى أصبحت أساسية لعالمنا . وما يصنعه الناس اليوم خوفا من العناصر اللامعقولة في أنفسهم و في غيرهم من الناس هو أن يضعوا الأدوات والأساليب التقنية بين أنفسهم وبين العالم اللاشعورى . وهذا الاجراء يحميهم من

أن تستولى عليهم الجوانب المخيفة المنذرة من التجربة اللامعقولة . وأنا على يقين من أن ماأقوله لن يُفهمْ على أننى ضد التقنية أو الأساليب الفنية أو الميكانيكية فى حد ذاتها . وإنما ما أقوله هو أن الخطر قائم دائما من أن تستخدم تقنيتنا كمنطقة عازلة بيننا وبين الطبيعة ، أو سداً بيننا وبين الأبعاد الأعمق فى تجربتنا . إذ ينبغى أن تكون الأدوات والأساليب الفنية امتدادا لوعينا ، غير أنها من الممكن أن تتحول فى يسر إلى حماية لنا من وعينا . وعندئذ تصبح الادوات عباره عن أساليب (ميكانيزمات) دفاعية وبخاصة ضد الأبعاد الأوسع والأعقد فى الوعى الذى نسميه اللاشعور ومن ثم تجعلنا تلك الميكانيزمات والتقنية « غير واثقين فى دوافع الروح » على حد تعبير الفيزيائى هايزنبرج (٨) Heisenberg .

وقد أكدت المدنية الغربية منذ عصر النهضة على أهمية الأساليب التقنية والميكانيكية بصورة أساسية . فمن المفهوم إذن أن تصب دوافعنا المبدعة نحن وأجدادنا منذ عصر النهضة مرة أخرى فى قنوات لصنع الأشياء التقنية أى أن يتجه الإبداع صوب تقدم العلم وتطبيقه . مثل هذا التوجيه للابداع وراء أغراض تقنية ملائم على مستوى واحد ، ولكنه يفيد بوصفه دفاعا نفسيا على مستوى أعمق . وهذا معناه التشبث بالتكنولوجيا والإيمان بها والاعتماد عليها بحيث تتجاوز مجالها المشروع ، مادامت تستخدم أيضا كدفاع ضد مخاوفنا من الظواهر اللاعقلية . وهكذا يصبح نجاح الإبداع التقنى نفسه – وروعة هذا

---

(٨) فرنر – هايزنبرج « تمثل الطبيعة فى الفيزياء المعاصرة The Representation of Nature in Contemparary Physics – فى « الرمزية فى الدين والأدب » تحرير رولوماى (نيويورك ١٩٦٠) ص ٢٥٥ .

النجاح ليست فى حاجة إلى أن أشيد بها - تهديدا لوجوده نفسه .إذ أننا لو لم نكن منفتحين على الجوانب اللاشعورية اللاعقلية ، الانتقالية ، من الابداع ، فإن علومنا وتقنيتنا تكسون قد ساعدت على أن تحول بيننا وبين ما سوف أسميه « إبداع الروح » Creativity of the spirit . وبهذه العبارة أعنى الإبداع الذى لا يمت بصلة إلى الاستخدام التقنى ؛ أى الابداع فى الفن ، فى الشعور ، فى الموسيقى ، وفى مناطق أخرى قامت لإمتاعنا وتعميق المعنى وتوسيعه فى حياتنا ، لا من أجل اكتساب المال أو زيادة القوة التقنية .

وإلى الحد الذى نفقد فيه هذا الابداع الروحى الحر الأصيل ، كما يتمثل فى الشعر والموسيقى والفن ، نفقد معه أيضا إبداعنا العلمى . ويخبرنا العلماء أنفسهم ، وبخاصة الفيزيائيون بأن الابداع فى العلم مرتبط بحرية البشر فى الابداع بمعناه الحر الخالص . ومن الواضح كل الوضوح فى الفيزياء الحديثة أن الكشوف التى أمكن الافادة منها فيما بعد فى مكاسبنا التقنية تمّت بعامة وفى المقام الأول لأن فيزيائيا ترك لخياله العنان واكتشف شيئا لمجرد متعة الاكتشاف فى حد ذاتها . بيد أن هذا الكشف يخاطر دائما بقلب نظرياتنا البديعة التى تعبنا فيها كثيرا من قبل رأسا على عقب ، كما حدث عندما عرض آنيشتين نظريته النسبية ، أو كما قدّم لنا هاينزنبرج مبدأه فى اللاتعين Indeterminacy والنقطة التى أعنيها هنا هى أكثر من التفرقة التقليدية بين العلم « البحت » pure والعلم « التطبيقى » applied إذ أن ابداع الروح يهدد - بل لا بد أن يهدد - بنية مجتمعنا المنظم وطريقتنا فى الحياة وافتراضاتهما السابقة وعقلانيتهما . ودوافعنا اللاشعورية اللاعقلية ملزمة بطبيعتها على أن تكون تهديدا لعقلانيتنا ، ومن ثمّ كان القلق الذى نعانيه أمرا لا مهرب منه .

وأنا لا أرى هنا أن الابداع الصادر عما قبل الشعـور وعن اللاشعـور ليس مهما فحسب للفن والشعر والموسيقى ؛ وإنما أرى أنه جوهرى علـى المدى الطويل لعلمنا أيضا فلو أننا انكمشنا من القلـق الذى يترتب على ذلك ، وسددنا الطـريق فـى وجـه التهديـد المتولد عن هـذه البصائر والأشكال الجديدة ، لم نجعل مجتمعنا متبذلا وأكثر خواءً بصورة مطّردة فحسب ، بل لقطعنا أيضا الينابيع المنبثقـة من الجبال الصخرية الخشنـة التى تمد جـدول الميـاه ليصبح فيما بعـد نهر الابداع الـذى يستـرفد منـه علمنا . ولقـد كـان الفيزيائيون والرياضيون الجدد- لأسباب لا ينقصها الوضوح - كـانوا أول مـن أدرك هـذه العلاقـة المتبادلـة بين الاستثارة اللاشعورية اللاعقلية وبين الكشف العلمى .

دعنى أقـدّم لك الآن تصويرا للمشكلـة التى نواجهها .. ظهـرتُ عدة مـرات فى التليفزيون ، فاسترعى انتباهى شعـوران مختلفـان .أحدهما كان الدهشـة من أن كلماتى المنطوقة فى الاستوديـو يمكن أن يستقبلـها فى نفس اللحظـة نصف مليون شخص جالسون فى حجرات المعيشة . والشعور الآخر هو أننى كلمـا واتتنى فكرة أصـيلة ، وكلمـا شـرعت فى تلك البـرامج لمناضلة مفهوم جديد لم يتشكل بعد ، وكلما خطرت على بالى فكرة مبتكرة ربما عبرت حدود المناقشة ، كان البرنامج يتوقف عند هذه النقطة . ولست غاضبا على المشرفين الذين يفعلون ذلك ؛ فهـم يعرفـون حدود عـملهم ، ويدركون أنه إذا كان ما يحدث فى البرنامج لا يتلاءم مـع عالم المستمعين من چورچيـا إلى وايومينج Wyoming ، فإن المشاهدين سوف ينهضـون من مقـاعدهـم ، ويذهبون إلى المطبخ ، لإحضار قدح من الجعة ، ثم يعودون لتحويل القناة إلى فيلـم من رعـاة البقـر .

وعندما تكون لديك الامكانات التى تضع تحت تصرفك وسائل الاتصال الهائلة

بالجماهير فإنك تميل حتما إلـى الاتصال على مستوى نصف المليون شخص مـن المستمعـين . وما تقولـه ينبغى أن يكـون له مكان فى عالمهم ، أو على الأقل ينبغى أن يكون معروفا جزئيا لهم . من المحتمّ إذن ، أن الأصالة وتعدّى الحدود والجِدة الأساسية للأفكار والصور ستكون مشبوهة على أحسن الفروض ، مرفوضة تماما على أسوئها . والاتصال بالجماهير الذى يعد أعجوبة من الناحية التقنية ، وشيئا جديرا بالتقدير والاعتزاز يمثل لنا خطرا حقيقيا ، خطر النزعة الامتثالية Conformism ، نظرا لأننا نشاهد جميعا نفس الأشياء فى نفس الوقت فى مدن البلاد جميعا .هذه الحقيقة تلقى فى حد ذاتها عبئا فادحا على جانب الانتظام والتوحد وضد الأصالة والابداع المتحرر.

— ٦ —

وكما أن الشاعر تهديد للنزعة الامتثالية ، فهو أيضا تهديد مستمر للطغاة السياسيين .إذ تراه دائما على شفا تفجير نظام التجميع Assembly line الذى تهيمن عليه السلطة السياسية .

ولدينا براهين قوية مؤثرة على ما نقول فى روسيا السوفييتية وقد ظهر معظمها فى الاضطهاد والتطهير الذى عاناه الفنانون والكتاب فى عهد ستالين الذى كان يصاب بقلق مرضىّ حين يواجهه الخطر الذى يضعه اللاشعور المبدع متهددا نظامه السياسى . والحق أن بعض الطلبة يعتقدون أن الموقف الحالى فى روسيا يكشف عن صراع دائر بين العقلانية وبين ما أسميناه « الابداع الحر » . وفى المقدمة التى كتبها چورج ريڤى George Reavey لأعمال الشاعر الروسى يڤچينى يڤتوشنكو Yevgeny Yevtushenko يقول :

« ثمة شيء حول الشاعر وتعبيره الشعرى يجعل له تأثيرا رهيبا على بعض الروس ، وبخاصة على السلطات سواء كانت قيصرية أو سوفييتية ، وكأن الشعر قوة لا معقولة ينبغي إلجامها واذلالها بل وتحطيمها . » . (٩)

ويذكر « ريفى » المصير المأساوى الذى لحق بكثير من الشعراء الروس ، ويذهب إلى « أن روسيا كأنما كانت تخاف من صورة ثقافتها الآخذة في الاتساع ، وتشعر أنها مهددة بالضياع الممكن الذى قد يصيب هويتها النظرية البسيطة ، وأنها تحتاج بالضرورة إلى تحطيم كل ماهو أشد تعقيدا بوصفه أجنبيا عنها » وهو يشعر « بأن هذا قد يكون راجعا إلى اتجاه فطرى إلى النزعة الطهورية Puritanism .أو إلى رد فعل لشكل عتيق للنزعة الأبوية » أو لعله يرجع إلى الآثار الأليمة الحاضرة لانتقال مباغت جدا من السُخرة إلى التصنيع . وربما أثرت أيضا هذا السؤال وهو هل هناك بين الروس دفاع ثقافى ضد العناصر اللامعقولة فى أنفسهم ومجتمعهم أضعف مما يوجد عند غيرهم من الشعوب .ألا يعيش الروس فى أنفسهم ومجتمعهم فى الواقع على نحو أقرب إلى العناصر اللامعقولة من البلدان الأوروبية الأقدم ، ومن ثمّ كانوا أكثر تعرضا لتهديد اللامعقولية الجامحة غير المستأنسة مما جعلهم يبذلون مجهودا أضخم للتحكم فيها بواسطة التنظيم الصارم ؟

ألا يمكن أن يثار هذا السؤال نفسه عن الولايات المتحدة على نحو أكثر جدوى .أعنى ، أليس إلحاحنا على العقلانية البرجماتية ، وسيطرتنا

---

(٩) يفجينى يفتوشنكو ، شعر يفجينى يفتوشنكو ، ١٩٥٣ – ١٩٦٥ ترجمة چورج ريفى (نيويورك ، ١٩٦٥) ، صفحات المقدمة من X إلى XI.

العملية . وطرائقنا السلوكية في تطبيق دفاعاتنا الفكرية ضد العناصر اللامعقولة التي كانت قائمة على حدود مجتمعنا منذ مائة عام فحسب ؟

هذه العناصر اللامعقولة دائمة التفجر، ويتمثل معظمها - وفي هذا ما يثير دهشتنا البالغة - في حرائق الغابات التي تشعلها الحركات الإحيائية للقرن التاسع عشر ، وفي قبائل كوكلوكس كلان Ku Klux Klan . وفي الكارثية ، إذا أردنا أن نقتصر على الأمثلة السلبية الرئيسية

غير أن هناك نقطة خاصة أحب أن أذكرها هنا عن انشغال الولايات المتحدة بـ « السلوك » . علوم الانسان في أمريكا تسمى « العلوم السلوكية » Behavioral sciences . وقد أطلق على البرنامج القومي للرابطة السيكولوجية الأمريكية American Psychological Association « التوكيد على **السلوك** »، وإسهامنا الرئيسي الأصيل والتفصيلي الوحيد في المدارس النفسية هو « **النزعة السلوكية** » Behaviorism في مقابل كثير من المدارس الأوروبية مثل : التحليل النفسي ، والبنوية الجشطلتية ، وعلم النفس الوجودي .... إلخ . وقد سمعنا جميعا أثناء طفولتنا هذه العبارة : « راعي آداب السلوك Behave Yourself ! السلوك ! السلوك ! هذه العلاقة بين البيوريتانية Puritanism الأخلاقية وهذا الانشغال بالسلوك ليس مجرد توهم أو شئ عارض على الاطلاق .ألا يكون توكيدنا على السلوك أو أداء « اتجاهنا الفطرى إلى البيوريتيانية » كما يرى « ريفي » هو نفس الوضع في روسيا ؟ وأنا في وعي كامل بالطبع بالحجة القائلة بأنه كان لا بد لنا من دراسة السلوك لأنه الشئ الوحيد الذي يمكن أن ندرسه بشئ من الموضوعية بيد أنه يمكن أن يكون - وهو كذلك حقا - تحيزًا ضيق الأفق رُفع إلى مستوى المبدأ العلمي . ولو أننا قبلناه بوصفه افتراضا مسبقا ، ألا يقودنا ذلك إلى

إنكسار تعسفي لدلالة النشاط اللامعقول الذاتي بادخالها تحت قناع النتائج الخارجية ؟

وعلى أى حال فإن « ريڤى » يقرر أنه حتى إذا كان ستالين ميتا ، فإن موقف الشاعر في روسيا مازال حَرِجاً ، لأن الشعراء الأصغر وبعض الشعراء الكبار الذين كمموا أفواههم منذ ذلك الحين ، اعتزموا التعبير عن مشاعرهم الحقيقية وتفسير الحقيقة كما يرونها .

وهؤلاء الشعراء لم ينددوا بالاستبدال الفاسد للزيف بالحقيقة في روسيا فحسب ، وإنما يحاولون تجديد شباب اللغة في الشعر الروسي بتنقيتها من الكليشيهات السياسية و « صور الأب » . وفي أثناء الستالينية ، كان ذلك موضعا للإدانة بوصفه « تعايشا أيديولوجيا Ideologial co - existence» مع « العالم البورچوازي » ، وكان الشاعر ينتهي أمسره لأى شئ « يبدو أنه يهدد النظام المغلق المنحصر للواقعية السوڤييتية » . والكارثة الوحيدة هي أن أى نوع من « النظام المغلق المنحصر » يحطّم الشعر مثلما يحطّم الفنون جميعا . ويمضى « ريڤى » قائلا :

« في خطبة ألقاها الكسندر بلوك Alexander Blok الشاعر الروسي الكبير في ١٩٢١ - ذكر أن « الطمأنينة والحرية أساسيان للشاعر لكي يحرّر الانسجام » .

غير أنه واصل خطبته قائلا :

« والسلطات السوڤييتية تنتزع منا طمأنينتنا وحريتنا . **ولا أعني الطمأنينة الخارجية وإنما الطمأنينة الخلاقة** . كما لا أعني الحرية الطفولية القائلة « إفعل ماتشاء » ، أو حرية تمثل دور الشخص

الليبرالى – وإنما الإرادة المبدعة – الحرية المستترة . The secret freedom وها هو الشاعر يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لأنه لم يعد هناك ما يتنفسه : لقد فقدت الحياة معناها بالنسبة له » (١٠)

هذه صيغة قوية من الدعوى التى تقدمت بها ألا وهى : إن الابداع لا تقوم له قائمة (أى شرطه الأساسى الذى لا يقوم إلا به Sinequa ron) هو حرية الفنانين لاعطاء كل العناصر التى تدور فى نفوسهم القدرة على الانطلاق وحتى تتفتح إمكانية ما أسماه بلوك تسمية ممتازة بـ « الإرادة الخلاقة » (١١) والشطر السلبى فى بيان بلوك يصدق على الشعر فى عهد ستالين ، وكان سائدا فى الولايات المتحدة فى عهد مكارثى . وهذه « الطمأنينة المبدعة » « وتلك » الحرية المستترة » هما بالذات مالا يستطيع الدجماطيقيون (القطعيون) التسامح معه . ويعتقد ستانلى كونتيز Stanley Kunitz أن الشاعر هو حتما خصم الدولة ويقول إن الشاعر هو الشاهد على إمكانية الوحى وهذا أمر لا يستطيع المتحجرون سياسيا قبوله .

والدجماطيقيون – من كل صنف ولون فى العلم والاقتصاد ، والأخلاق ، وكذلك فى السياسة – تتهددهم حرية الفنان الخلاقة . وهذا موقف ضرورى محتوم وليس فى استطاعتنا أن نهرب من القلق الذى يساورنا من أن الفنانين – وفى زمرتهم الأشخاص المبدعون من كل نوع – هم المدمرون المكنون لنظمنا المنظمة على نحو بديع . ذلك أن الدافع الخلاق هو الصوت الذى يتحدث ويعبر عن الأشكال اللاشعورية وماقبل اللاشعورية ، وهذا التعبير هو بطبيعته ذاتها

---

(١٠) المرجع السابق ، ص VII (ص ٧ من المقدمة)

(١١) نفس المرجع ، من VIII إلى IX (من ص ٨ إلى ص ٩ من المقدمة)

تهديد للمعقولية والسيطرة الخارجية . ومن ثم يحاول الدجماطيقيون إقناع الفنان . وقد حاولت الكنيسة - فى مراحل معينة - أن تلجمه بموضوعات ومناهج مسبقة . أما الرأسمالية فتحاول احتواء الفنان بشرائه مثلما حاولت الواقعية السوفيتية أن تفعل مثل هذا بالحرمان أو العزل الاجتماعى . والنتيجة - وفقا لطبيعة الحافز الخلاّق ذاتها - قاتلة للفن ولو كان من الممكن التحكم فى الفنان - وأنا لا أومن بأنه شئ ممكن - فهذا معناه موت الفن .

* * *

الفصل الرابع

الابداع والمواجهـــة

أريد أن أقـترح نظرية ، وأن أردفهـا ببعض الملاحظات ، أثارت معظمـهـا اتصـالاتى ومناقشـاتى مع الفنانين والشعـراء . والنظرية هى : **أن الابـداع يحدث فى فعل من المواجـهـة وينبـغى فهمـه على أساس أن هذه المواجهة هى مركزه .**

ها هو « سيزان » يرى شجرة . هـو يراهـا بطريقة لم يرها بها أحـد من قبله أبـدا والتجـربة التى يمر بها ، والتى من الممـكن أن يقول عنها بلا ريب هـى « أن الشـجـرة قـد أطبـقت عليـه . » شمـوخ الشـجـرة وتسـامـقـهـا وانتشارها الحـانى الأمومـى ، والتوازن الرقيق فـى تشبثها بالارض .. كل هــذا - وكثير غيره - من سمات الشجرة قد امتصها إدراكه الحسى ، وشعر بها من خلال بِنْيته العصبية كلها . وهذا كله شطر من الرؤية التى تجتازها تجربته . هذه الرؤية تقتضى حـذفاً لبعض جوانب المشـهد وتوكيـدا أكبر على جـوانب أخرى، وما ينتج عن إعادة ترتيب هذا كله ، غير أنه أكثر من مجموع هذا كله . ويأتى فى المقـام الأول أن الرؤيـــة لم تعد الآن شجـــرة ، بل « الشجرة » ، ذلك أن الشـجـرة العينية التى نظر إليـها « سيزان » قد تشكلت فـأصبحت مـاهيـة الشجرة . ومـهمـا تكن رؤيته أصيلة لا تتكرر ، فما برحت رؤية للأشجار جميعا أطلقتها مواجهته لهذه الشجرة الجزئية المعينة .

وهذا التصوير الذى يصدر عن هذه المواجهة بين إنسان هو « سيزان » وواقع موضعي هو الشجرة هو مواجهة جديدة وفريدة وأصيلة بالمعنى الحرفى . فها هو شئ يولد ، يأتى إلى الوجود ، شئ لم يكن له وجود من قبل .. وهذا تعريف جيد للإبداع نستطيع أن نضع عليه أيدينا . وكل من يأتى بعد ذلك ليشاهد اللوحة بشدة فى الوعى ، ويتركها تتحدث إليه سيرى الشجرة بالحركة القوية الفريدة ، وبالحميمية بين الشجرة والمنظر الطبيعي ، والجمال المعمارى الذى لا يوجد حرفيا فى علاقتنا بالأشجار حتى جاء سيزان بتجربته ورسمها . وأستطيع أن أقول بلا مغالاة أننى لم أشاهد أبدا شجرة حقا حتى رأيت واستوعبت رسومات سيزان لها .

— ١ —

وهذه الحقيقة ذاتها التى تجعل من الفعل الخلّاق مواجهة بين قطبين هى التى تجعل من دراسة هذا الفعل أمرا عسيرا .من اليسير تماما أن نجد القطب الذاتى وهو الشخصى ، ولكن أصعب من ذلك كثيرا أن نقوم بتعريف القطب الموضوعى ، وهو « العالَم » أو « الواقع » . ومادام توكيدى هنا على المواجهة نفسها ، فلن أعبأ كثيرا فى هذه اللحظة بمثل هذه التعريفات . وفى كتاب « الشعر والتجربة » يستخدم مؤلفه أرشيبالد ماكليش Archibald Macleish أشمل المصطلحات الممكنة لقطبى المواجهة : « الوجود والعدم » ويستشهد بشاعر صينى يقول : « نحن الشعراء نناضل العدم لإرغامه على إنجاب الوجود . ونحن ندق أبواب الصمت لتجيب علينا الموسيقى » (١) . ويعقب ماكليش قائلا :

---

(1) Archibald Macleish, Poetry and Experience(Boston,1961) , p 8-9

أرشيبالد ماكليش: الشعر والتجربة (بوسطن ١٩٦١) من صفحة ٨ – ٩ .

« تأمل ماتعنيه هذه العبارات .إن الوجود الذى يجب أن تتضمنه القصيدة يستمد من « العدم » لا من الشاعر . والموسيقى التى تريد القصيدة أن تنالها لا تأتى من لدنّا نحن الذين ننظم القصيدة ، وإنما تأتى من الصمت ؛ تأتى إجابةً على دقتنا والأفعال هنا بليغة : « يناضل » ، « يرغم » ، « يدق » . وجهد الشاعر هو أن يناضل اللامعنى والصمت اللذين يتلفع بهما العالم حتى يرغمهما على اتخاذ المعنى ؛ حتى يجعل الصمت يجيب ، والعدم يوجد . إنه جهد يأخذ على عاتقه أن « يعرف » العالَم لا عن طريق التأويل أو البرهان أو الأدلة ، وإنما بطريقة مباشرة، كما يعرف الانسان التفاحة وهى فى فمه . »[٢] . وهذا ترياق صسيغ فى تعبيرجميل لافتراضنا الشائع بأن الاسقاط الذاتى هو كل مايحدث فى الفعل المبدع ، وتذكير بالسر الذى لا مهرب منه والذى يحيط بعملية الإبداع

ورؤية الفنان أو الشاعر هى المحدّد الوسيط بين الذات (الشخص) وبين القطب الموضوعى (العالم الذى ينتظر الوجود) . وسيكون عدما حتى ينشئ صراع الشاعر معنىً مجيبا . ولا تكمن عظمة القصيدة أو اللوحة فى أنها تصور الشئ الذى لاحظه الفنان أو عاناه ، بل لأنها تصور رؤية الفنان أو الشاعر التى تشكلت نتيجة لمواجهة للواقع . ومن ثم كانت القصيدة أو اللوحة فريدة ، أصيلة ، لا سبيل إلى تكرارها وليس عدد المرات التى عاد فيها مونيه Monet لرسم الكاتدرائية فى روان .. ليس هذا العدد مهما على الاطلاق ، لأن كل لوحة كانت رسما جديداً يعبرّ عن رؤية جديدة .

وهنا يجب أن نحترس من الوقوع فى أحد الأخطاء الفادحة فى تفسير التحليل النفسى للابداع . وهذا الخطأ هو محاولة العثور على شئ داخل الفرد أسقطه فى عمله الفنى ، أو على تجربة مبكرة نقلت إلى قماش اللوحة أو كتبت فى

---

(٢) المرجع نفسه .

قصيدة . ومن الجلي أن التجارب المبكرة تلعب أدوارا مهمة الغاية فى تحديد كيفية مواجهة الفنانين لعالمهم فيما بعد . غير أن هذه المعطيات الذاتية لا تستطيع أبدا أن تفسر المواجهة نفسها .

وحتى في حالات فناني التجريد ، حيث تكون عملية التصوير ذاتية إلى أقصى حد ، فإن العلاقة بين الوجود واللاوجود تكون حاضرة بكل تأكيد ، وربما أشعلتها مواجهة الفنانين للألوان البراقة المنتشرة على « الباليت » ، أو البياض الغفل الذي يدعوه على قماش اللوحة . وقد وصف الرسامون الإثارة التى تنبعث من هذه اللحظة : بأنها أشبه بإعادة تمثيل قصة الخلق ، حيث تدب الحياة فيها بغتة ، وتمتلك حيوية خاصةً بها .

ويملأ « مارك توبي » Mark Tobey لوحاته بخطوط إهليجية وبحروف الكتابة ، وبدوامات جميلة تبدو لأول وهلة على أنها تجريدية صرفة ، ولا تأتى من أى مكان آخر سوى تهويماته الذاتية . وإن أنسى فلن أنسى أبدا أننى صدمت ذات يوم زرت فيه مرسم « توبى » وهناك رأيت كتبا منتشرة فى كل مكان عن الفلك وصورا فوتوغرافية عن الطريق اللبنية Milky Way . وعندئذ علمت أن « توبى » يستوعب فى تجربته حركة النجوم والكوكبة الشمسية بوصفها القطب الخارجي لمواجهته .

ولا ينبغي أبدا أن نخلط بين قدرة الفن على الاستقبال Reajativrty وبين السلبية Passivity .فاستقبالية الفنان أو تلقيه هى التى تحفظه حيا ومنفتحا على ماقد يتحدث به الوجود . ومثل هذه الاستقبالية تتطلب رهافة وحساسية فائقه لكي تكون نفس المرء ناقلة أو وسيلة للرؤية التى تظهر. وهى عكس المطالب السلطوية التى تفرضها « إرادة القوة » . وأنا أدرك إدراكا تاما جميع النكات التى تظهر فى صحيفة « النيويوركر » The New Yorker و فى غيرها والتى تصور الفنان جالسا خائب الرجاء أمام حامل اللوحة وفرشاته فى يد لا حول لها ولا قوة ، منتظرا أن يهبط عليه الإلهام .

غـيـر أن « انتظـار » الفنان ومـهـمـا يـكن ذلك مـضـحكـا – فى الصـور المتحركة (الكارتون) – فشئ لا ينبغى الخلط بينه وبين الكسل أو السلبية . ذلك أن الفنان فى هذه الحالة يتطلب درجة عالية من الانتباه ، وكأنه غاطس يتأهب عند نقطة الوثوب ، فهو لا يقفز وإنما يحتفظ بعضلاته فى توازن حساس إستعدادا للحظة الانطلاق .إنه إنصات مرهف ، مهيأ لسماع الإجابة ، متيقظ لما يمكن أن يلمحه عندما تأتى الرؤية أو الكلمات .إنه انتظار لعملية الولادة لكى تبدأ فى الحركة فى وقتها العضوى الخاص . ومن الضرورى أن يكون للفنان هذا الاحســـاس بالتوقيت ، وأن يحترم هذه الفترات الاستقبالية كجزء من سر الابداع والخلق .

— ٢ —

وفى كتاب صغير كتبه « جيمس لورد » James Lord مثـل بارز علـى المواجهة الابداعية إذ يقص فيه تجربته أثنـاء وقوفه أمام آلبرتو چيـاكومتى Alberto Giacometti ليرسم له لوحة . ولأن صداقة هذين الرجلين امتدت بينهما فترة طويلة ، فقد كان من الممكن أن يكون كل منهما صريحا مع الآخر تمام الصراحة . وكان « لورد » يقوم بتسجيل ملاحظاته مباشرة عقب كل جلسة عما يقوله « چياكومتى » ويفعله . ومن هذه الملاحظات خرج كتابه هذا القيّم من تجربة المواجهة التى تحدث فى الابداع .

فهو يكشف فى المقام الأول درجة القلق والعذاب الهائلة التى تولّدها المواجهة فى چياكومتى . وعندما يصل « لورد » إلى الاستوديو لاتخاذ وضعه جالساً ، كان چياكومتى يتشاغل مكتئبا فى كثير من الأحيان حوالى نصف ساعة أو ما يزيد بأشياء تافهة تتصل بنحته ، وهو فى حالة واضحة من الخوف للبدء فى رسمه .

فإذا استجمع أطراف شجاعته وقرر أن يشرع فى الرسم حينئذ يصبح قلقه علينا ويكتب لورد قائلا : « ففى لحظة يبدأ چياكومتى فى اللهاث ويدق الأرض بقدميه :

ويصيح قائلا : « إن رأسك ترحل بعيدا . لقد رحلت تماما ! »

فأقول : « ستعود مرة أخرى »

فيهز رأسه : « ليس بالضرورة ربما ستخلو اللوحة منها تماما وعندئذ ماذا يكون مآلى ؟ سأموت بسبب ذلك ! » ...

ثم يفتش فى جيبه ، ويخرج منديله ، ويتفرس فيه لحظة ، وكأنه لا يعرف ما هو هذا الشئ ، ولا يلبث أن يقذف به على الأرض وهو يئن . وبغتة يصيح بصوت مرتفع جدا ، « إننى أصيح ! إننى أصرخ ! » (٣)

وينتقل لورد إلى نقطة أخرى :

« والحديث إلى نموذجه أثناء عمله يلهيه – على ما أظن – عن القلق الدائم الناجم عن اقتناعه بأنه لا يستطيع أن يأمل تصوير ما يراه أمامه على اللوحة . هذا القلق ينفجر فى كثير من الأحيان على لهثات مكتئبة ، وتجديفات ثائرة ، وصرخات عالية من الغضب أو الكمد يطلقها حينا بعد حين . إنه يتعذب لاشك فى ذلك .

« ويلتزم چياكومتى بعمله بطريقة مكثفة شاملة على نحو خاص . والقهر الابداعى لا يغيب عنه أبدا تمام الغياب ، ولا يترك له لحظة واحدة من الهدوء التام » (٤) .

---

(٣) چيمس لورد ، صورة لجياكومتى (نيويورك ، ١٩٦٤) ، ص ٢٦

James Lord , A Giacometti Partrait (Newyork, (79,4) , p.26

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٢ .

ولقد كانت المواجهة من الشدة بحيث كان يوحدّ في كثير من الأحيان بين الرسم الموضوع على حامل اللوحة وبين الشخص الفعلي المخلوق من لحم ودم الذي يجلس أمامه ليرسمه . وذات يوم ارتطمت قدمه مصادفة بالقابضة التي تُمسك برف الحامل في المستوى الصحيح ، مما أدى باللوحة أن تسقط بغتة قدما أو قدمين .

قال : « أوه ، أرجو المعذرة ! » فضحكت ولا حظت أنه التمس لنفسه العذر وكأنه تسبب في سقوطي لا في سقوط اللوحة . وأجابني قائلا : « هذا هو بالضبط ما أحسسته » . (٥) .

وكان هذا القلق يرتبط عند « چياكومتي » – كما هي الحال عند أستاذه المبجل « سيزان » – بقدر كبير من الشك في ذاته .

« فهو لكي يستمر ، ويأمل ، ويؤمن بأن هناك فرصةً ما لكي يُبْدع بالفعل ما يتصوره على نحو مثالي ، كان مُجْبرا على أن يشعر بأنه من الضروري أن يبدأ مهنته كل يوم من الصفر .. وكان يشعر في كثير من الاحيان بأن النحت أو الصورة المعينة التي يتصادف أنه ينجزها في تلك اللحظة هي اللوحة أو النحت الذي يعبّر لأول مرة عما يعانيه ذاتيا استجابة لواقع موضوعي » (٦)

ويرى « لورد » بحق أن القلق يرتبط بالفجوة القائمة بين الرؤية المثالية التي يحاول الفنان تصويرها وبين النتائج الموضوعية . وهنا يناقش التناقض الذي يكابده كل فنان .

« هذا التناقض الأساسي الناشئ عن التباين الذي لا مفر منه بين التصور

---

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٣

(٦) المرجع نفسه ، ص ١٨ .

والتحقيق ، قائم في جذور كل إبداع فني ، يساعد على تفسير القلق الذي يبدو أنه عنصر لا سبيل إلى تجنبه في تلك التجربة وحتى الفنان « السعيد » مثل رينوار Renoir مثلا لم يكن محصنًا ضده (٧) .

« والمعنى الذي نستخلصه من هذا ، والشئ الوحيد الموجود الذي له حياة خاصة به كان صراعه (أي صراع چياكومتي) الذي لا يكل ولاينتهي عن طريق فعل الرسم ليعبرّ في أشكال بصرية عن إدراك للواقع تصادف أنه يتطابق وقتيا مع رأسي أنا (التي كان چياكومتي يحاول رسمها) . وتحقيق هذا مستحيل بالطبع ، لأن ماهو مجرد لا يمكن أن نجعله عينيا دون تغيير ماهيته .

غير أنه كان ملتزما ، أو كان في واقع الأمر مقضياً عليه بالمحاولة التي كانت تبدو أحيانا أشبه بمهمة سيزيف Sisyphus » (٨).

وذات يوم التقى لورد بچياكومتي في إحدى المقاهي مصادفة .

« وكان يبدو بائسا حقا بكل تأكيد . وخطر لي أن هذا هو چياكومتي الحقيقي ، جالسا على انفراد في الجزء الخلفي من المقهى ، متناسيا اعجاب العالم واعترافه به ، محملقا في فراغ لايمكن أن يصدر عنه أي عزاء ، يُعذبه ذلك الانقسام الثنائي في مثله الأعلى ، ومع ذلك فهو محكوم عليه بأن يقوم مادام حيا بذلك الصراع اليائس في محاولة للتغلب عليه (أي على هذا الانقسام) . أي عزاء يمكن أن يجده في أن صحف بلاد كثيرة تتحدث عنه ، وفي أن المتاحف في كل

---

(٧) المرجع نفسه ، ص ٢٤

(٨) نفس المرجع ، ص ٤٦

مكان تعرض أعمالــه ، وفى أن أناسا لن يعرفهم أبدا يعـــرفونـــه ويحمـــلون له كل إعجاب ؟ لا عزاء ... لا عـزاء على الإطلاق [٩] » .

وعندمـا نلمـس المشـاعـر الحـمـيمـة والتـجـارب البـاطنة لفنان شـبـهـير مـثل چياكومـتى، نبتسـم من الكلام الفارغ الذى يدور فى بعـــض أوســـاط العلاج النفسى عن « تسوية » (*) الناس ، وجعلهم « سعداء » ، وانتزاع كل ألم أو همّ أو صـراع أو قلق يكابدونه بوسـائل فنية بسيطة تقـوم بتعديل سلوكهم . مـا أصـعب على البشـر من استيـعاب المعنى العمـيق الذى تنطوى عليـه أسطورة سيـزيف ! . – أن يروا أن « النجـاح » و « التـصـفـيق الحـار » همـا الآلهتـان الداعرتان اللتان نعرف أنهما كذلك فى أطواء نفوسنا المستسرة ! وما أشق على البشر أن يعلموا أن الغرض من الوجود الانسانى عند رجل مثل چياكـــومتى لا يمت بصلة بالتـأمين والأمـان أو بالتكيف الذى يتحرر من الصراع .

كـان چيـاكـومـتى مكرسـاً – أو « مـحكومـا عليه » على حد تعـبيـر « لـورد » الملائم – الصـراع يدرك فـيه العـالم ويعـيـد انتـاجـه من خـلال رؤيتـه الخـاصـة كإنسان . وكان يعرف أنه لا وجود لبديل آخر بالنسبة له وهذا التحدى هو الذى أضفى المعنى على حياته فإنه هو وأمثاله يبحثون عن إحضار رؤاهم عما يعنيه أن يكون المرء انسـانا ، وان يـسروا من خـلال هذه الرؤية لعـالم من الواقـع ، أيا كانت ســرعة زواله وعبـوره – أو مدى اتســـاقـه – أن الواقـع يتلاشـى فى كل مرة تحــاول التـركيز عليــه . وما أشد بطلان الفروض العقلانية التى ترى أنه ما على المرء إلا أن يزيح عن العـالم ستـائر الخرافة والجـهل حتى يتبدى له الواقع على الفور ، نقيا صافيا !

---

(٩) نفس المرجع ، ص ٣٨

* أى جعلهم « أسوياء » Normal (المترجم).

كان چياكومتي يسعى إلى رؤية الواقع من خلال رؤيته المثالية وكان يبحث العثور على **الأشكال الأساسية** Ground Forms ، البنية الأساسية للواقع تحت سطح الساحة المغطاة حيث تفسق الآلهتان الداعرتان . ولم يكن يستطيع أن يتجنب تكريس نفسه بلا حدود لهذا السؤال : **أهناك مكان يتحدث فيه الواقع بلغتنا ويجيب علينا إذا فهمنا رموزه الهيروغليفية** ؟وكان يعلم أن بقية الناس لن يكونوا اكثر نجاحا فى العثور على الاجابة ؛ بيد أن لدينا ما أسهم به لنواصل العمل معه ، وبهذا نكون قد تلقينا شيئا من العون .

– ٣ –

ومن المواجهة يولد العمل الفني وهذا لا يصدق على الرسم وحده ، بل على الشعر وعلى الأشكال الأخرى من الابداع . وقد أفضى إليّ دابليو.هـ .أودن W.H.Auden فى محادثة خاصة دارت بيننا بقوله :

« ان الشاعر يتزوج اللغة ، ومن هذا الزواج تولد القصيدة » . ما أنشط الدور الذى تقوم به اللغة فى خلق القصيدة ! وليس معنى هذا أن اللغة مجرد أداة للاتصال ، أو أننا نستخدم اللغة للتعبير عن أفكارنا فحسب ؛ إذ لا يقل صدقا عن ذلك أن اللغة تستخدمنا ، فاللغة هى المستودع الرمزى للتجربة التى نعانيها لأنفسنا ولإخواننا البشر عبر التاريخ ، ومن حيث هى كذلك ، فإنها تخرج للامساك بنا فى إبداعنا للقصيدة . ولا ينبغي أن ننسى أن الكلمة الإغريقية والعبرية « أن تعرف » To Know تعني أيضا « أن تكون لك علاقات جنسية ». ونحن نقرأ فى الكتاب المقدس أن « إبراهيم عرف إمرأته فحملت منه » . واشتقاق الكلمة يثبت الحقيقة النمطية الأصلية Prototypical fact بأن المعرفة

نفسهـا – وكذلك الشعر والفن والانتاجات الابداعية الأخرى – تنشأ من الالتقاء الدينامي بين القطبين الذاتي والموضوعي .

وهذه الاستعارة الجنسية تعبّر بكل تأكيد عن أهمية المواجهة . ففي الممارسة الجنسية يواجه الشخصان كل منهما الآخر ؛ وينسحبان جزئيا ليتحد كل منهما بالآخر مرة ثانية ، ويجربان كل الفروق الدقيقة للمعرفة ، واللامعرفة ، لكي يعرف كل منهما الآخر مرة أخرى . ويتحد الرجل بالمرأة كما تتحد المرأة بالرجل ، ومن الممكن أن يُرى الانسحاب الجزئي بوصفه ذريعة لكي تُشْبِع تجربة النشوة مرة أخرى . وكل منهما إيجابي وسلبي بطريقته الخاصة وهذا برهان على أن عملية المعرفة هي الشئ المهم ؛ فإذا استقر الذكر ببساطة داخل المرأة فلن يحدث شئ أكثر من إطالة الشعور بأعجوبة الحميمية . والمعاناة المستمرة لتجربة المواجهة وإعادة المواجهة هي الحدث المهم من وجهة نظر الابداع النهائي Ultimate Creativity . والاتصال الجنسي هو الحميمية النهائية لكائنين في أكمل وأغنى مواجهة ممكنة . وليس هناك ما هو أكثر دلالة من أن هذه التجربة هي أيضا أعلى شكل للابداع من حيث أنها تستطيع أن تنتج كائنا جديدا .

والأشكال المعينة التي يأخذها المولود الجديد في القصائد والدراما والفنون التشكيلية هي **الرموز** Symbols **والأساطير** Myths . والرموز(مثل شجرة سيزان) أو الأساطير (مثل أسطورة أوديب) تعبرّ عن العلاقة بين التجربة الشعورية والتجربة اللاشعورية ، بين وجود المرء الفردي الحاضر وبين التاريخ الانساني . والرمز والأسطورة هما الشكلان الحيان الفوريان اللذان يصدران عن المواجهة، وهما يتألفان من العلاقة المتبادلة الجدلية – التأثير المتبادل الحي الايجابي المستمر– بحيث أن كل تغيير يطرأ على أحد الطرفين يُحدث تغييرا في

الطرف الآخر – أعنى القطبين الذاتى والموضوعى .إذ أنهما قد تولدا من الوعى الحاد للمواجهة التى نصفها ؛ وهما يملكان قوتهما التى تتيح لهما الامساك بنا لأنهما يتطلبان منا ويعطياننا تجربة من الشعور المتعالى .

وهكذا يسبق الكشف الفنى أشكال الكشف الأخرى في تاريخ الحضارة . ويعبّر سير هربرت ريد Herbert Read عن ذلك بقوله : « على أساس هذا النشاط (الفنى) يصبح « الخطاب الرمزى » ممكنا ويتبع ذلك الدين والفلسفة والعلم بوصفها أشكالا تالية من الفكر » وليس معنى هذا أن العقل هو الشكل الأكثر تمدنا وأن الفن هو الأكثر بدائية بالمعنى القادح .. وأنه خطأ فادح يوجد كثيرا لسوء الحظ في حضارتنا الغربية العقلانية . بل الأحرى أن نقول إن المواجهة المبدعة في شكل الفن هي مواجهة « شمولية » Total ، إذ تعبّر عن مجموع التجربة ؛ وأن العلم والفلسفة يقومان بتجريد جوانب جزئية لدراستهما التالية .

— ٤ —

ومن السمات المميّزة للمواجهة درجة **الشدة** intensity ، أو ما يمكن أن أسميه **عرامة الشهوة** Possion . وأنا لا أشير هنا إلى كمية Quantity العاطفة ، وإنما أعنى كيفية Quality الالتزام التى قد تكون حاضرة في التجارب الصغيرة – مثل لمحة قصيرة من النافذة على إحدى الأشجار – هذه اللمحة لا تقتضى بالضرورة قدرا كبيرا من الانفعال ، غير أن هذه التجارب الصغيرة زمنيا قد تكون لها دلالة كبيرة للشخص المرهف الحس ، منظورا إليه هنا على أنه الشخص صاحب القدرة على الانفعال العنيف . وقد لاحظ هانز

هوفمان Hans Hofmann—الزعيم المبجل للفنانين التجريديين في البلد وواحد من أكبر خبرائنا ومعلمينا المحنكين – أن طلاب الفن في أيامنا حائزون على قدر كبير من الموهبة ولكنهم يفتقرون إلى العاطفة القوية أو الالتزام . ومضى هوفمان قائلا ، في كثير من الطرافة – إن رجاله من الطلبة يتزوجون في سن مبكرة لأسباب أمْنية ويعتمدون في معيشتهم على زوجاتهم ، وكثيرا ما يحدث أنه لا يستخرج مواهبهم بوصفه مدرسا لهم إلا من خلال زوجاتهم . ووجود الموهبة بغزارة مع ندرة العاطفة القوية حقيقة تبدو لى وجها أساسيا من مشكلة الابداع في كثير من المجالات هذه الأيام ، وطرائقنا في تناول الابداع مع تجنب المواجهة قد لعبت مباشرة في هذا الاتجاه . فنحن نعبد الوسيلة الفنية – أعنى الموهبة – كوسيلة للهروب من القلق الناشئ عن المواجهة المباشرة .

وكان « كيركجور » يفهم ذلك جيدا ! فقد كتب عن نفسه قائلا : « في الوقت الحاضر يستطيع الكاتب أن يتنبأ بمصيره في سهولة في عصر طمست فيه العاطفة القوية لحساب التعليم ، في عصر عندما يريد الكاتب أن يكون له قراء ، فلا بد له أن يراعى الكتابة بطريقة يمكن بها أن يُقْرأ كتابه بسهولة خلال غفوة ما بعد الظهيرة » .

— ٥ —

وعند هذه النقطة نلمح قصور المفهوم الشائع الاستخدام في أوساط التحليل النفسي لتفسير الإبداع ألا وهو أنه « ارتداد في خدمة الأنا » . و في محاولاتى الخاصة لفهم رجال الابداع في التحليل النفسي ولفهم الفعل المبدع بوجه عام ،

وجدت هذه النظرية قاصرة . وليس ذلك بسبب طابعها السلبي فحسب ، لكن لأنها تقترح أساسا حلا جزئيا يبتعد بنا عن مركز الفعل المبدع ، وبالتالى بعيدا عن أى فهم تام للابداع

و فى تأييده لنظرية « الارتداد في خدمة الأنا » يسذكر « إرنسست كريس » Ernest Kris أعمال الشاعر المتوسط القيمة أ . إى . هوسمان A.E.Housman الذى يصف في ترجمته الذاتية طريقته في نظم الشعر على النحو التالى :

بعد صباح ممتلئ بتدريسه اللغة اللاتينية في بعض فصول أكسفورد اعتاد هوسمان أن يتناول وجبة غداء خفيفة يحتسى فيها قدحا من البيرة ، ثم يتمشى قليلا بعد ذلك . و في هذا المزاج الذى يليق بسائر أثناء النوم ، تتوارد عليه قصائده . وهنا يربط كريس – وفقا لنظريته – بين **السلبية** Passive-ness **والاستقبالية** Receptivity من ناحية وبين الابداع من ناحية أخرى . ومن الحق أن معظمنا يجد شيئا من الجاذبية في أبيات هوسمان التى يقول فيها :

إهدئى ، ياروحى ،إهدئى

فالذراعان اللتان تحملينهما

قابلان للكسر ......

وهذه الجاذبية تدعو إلى مزاج يختلط فيه الحنين بالنكوص في نفوسنا نحن القراء ، كما يحدث – على ما يبدو – لهوسمان نفسه .

أعترف إذن بأن الإبداع **يبدو** في كثير من الأحيان على أنه ظاهرة ارتدادية ، و أنه يستخرج معه مضامين نفسية قديمة طفولية لا شعورية مطمورة في ذات الفنان . ولكن ، ألا يتوازى هذا مع ما أشار إليه

بوانكاريه عندما أخذ يناقش كيف تنهال عليه بصائره فى فترات الراحة بعد جهوده الشاقة ؟ وهو يحذّرنا بخاصة من أن نفترض أن الراحة هى التى تنتج الابداع . والراحة – أو الارتداد – لا تفيد إلا فى تحرير الشخص من جهوده العنيفة ، وما يصاحبها من أنواع الكبت ، وذلك حتى يتمكن الدافع الابداعى من الانطلاق بحرية التعبير عن نفسه .

وعندما تكون العناصر البدائية القديمة فى قصيدة أو لوحة قدرة حقيقية على تحريك مشاعر الآخرين ، وعندما يكون لها شمول فى المعنى ، أعنى عندما تكون رموزا حقيقية .. فذلك لأن المواجهة تقع على مستوى أكثر أساسية وإحاطة ولو أخذنا على سبيل التضاد أبياتا من شاعر من أكبر شعراء يومنا هذا وليم بتلر ييتس William Butler Yeats ، نجد مزاجا مختلفا تمام الأختلاف . ففى قصيدة « المجئ الثانى » The Second Coming يصف ييتس وضع الانسان الحديث :

« الأشياء تتناثر ، والمركز لا يتماسك ؛
والفوضى وحدها تجتاح العالم .....»

ثم يخبرنا بما يرى :

« المجئ الثانى ! ماكدت أنطق
هذه الكلمات حتى تخايلت لبصرى
صورةٌ شاسعة ؛
هناك فى مكان مافوق رمال الصحراء ،
يتراءى لى شكل له جسم أسد ورأس إنسان ،

بنظرة بيضاء خاوية ، كالشمس لا رحمة فيها ،

يحرك فخذيه البطيئتين ......

يالها من دابة غليظة ،

حانت ساعتها أخيرا ،

تزحف صوب بيت لحم لتولد من جديد ؟

أية قوة هائلة في هذا الرمز الأخير ! إنه تجلٍ جديد ، ينطوي على كثير من الجمال ، ولكنه يحمل معنى رهيبا في علاقته بالموقف الذي نجد فيه أنفسنا نحن البشر المحدثين . والسبب الذي جعل ييتس يمتلك مثل هذه القوة هو أنه يكتب بدافع من عرامة الشعور الذي يحتوي على عناصر بدائية عتيقة لأنها جزء منه ، مثلما هي جزء من كل إنسان ، وستظهر في أية لحظة من الوعي المكثف . غير أن الرمز يستمد قوته من أنه مواجهة تتضمن أشد الجهود العقلية تكريسا وحماسة . وعندما كتب « ييتس » هذه القصيدة كان « متلقيا » Receptive ، غير أنه بخياله لم يكن سلبيا على الاطلاق . ويقول لنا ماكليش Macleish « إن كدح الشاعر ليس أن ينتظر حتى تتجمع الصرخة في حلقه من تلقاء نفسها » (١٠) .

ومن الجلي أن الاستبصارات الشعرية والابداعية تهبط علينا من كل الأصناف والألوان في لحظات الاسترخاء . وهي لا تأتي بصورة عشوائية على كل حال ولكنها لا تأتي إلا من المناطق التي نلتزم فيها التزاما مكثفا ، ونركزّ فيها في تجربتنا اليقظة الواعية . وقد يكون الأمر كما قلنا آنفا ، إن الاستبصارات

---

(١٠) ماكليش ، الكتاب المذكور ، ص ٨ - ٩

يمكن أن تشق طريقها من خلال لحظات الاسترخاء وحدها ، ولكن قولنا هذا يقتصر على أننا نصف كيف تأتى ، ولا نفسر منشأها ، أو من أين تأتى . ويحدثنى أصدقائى من الشعراء أنك إذا أردت أن تكتب شعرا أو حتى أن

تقرأه .. فإن الساعات التى تعقب وجبة غداء كاملة وقدحا من البيرة هى الوقت الذى ينبغى أن تختاره ، وأولى من ذلك أن تنتقى اللحظات التى تكون فيها فى أعلى درجات وعيك وأكثفها . ولو أنك كتبت شعرا أثناء فترة القيلولة ، فإنها لن تُقرأ إلا فى مثل هذه الفترة .

والقضية هنا ليست ببساطة أى الشعراء تحبهم ، وإنما الأمر الأكثر أساسية كثيرا هو طبيعة الرموز والأساطير التى تتولد فى فعل الابداع ، ذلك أن الرمز والأسطورة يحملان الى الوعى مخاوف طفولية بدائية قديمة ، واشواقا لاشعورية ، ومضامين مماثلة بدائية وتفسيية هذا هو جانبهما الارتدادى (أو النكوصى Regressive) ، بيد أنهما يستخرجان معنىً جديدا ، وأشكالا جديدة ، ويميطان اللثام عن واقع لم يكن حاضرا من قبل ، واقع ليس ذاتيا صرفا ، وإنما له قطب ثان يوجد خارج أنفسنا . هذا هو الجانب **التقدمي** Progressive للرمز والأسطورة . هذا الجانب يشير قُدُما إلى الامام وهو جانب تكاملى وكشف تقدمى للبنية فى علاقتنا بالطبيعة وبوجودنا الخاص كما يقرر ذلك الفيلسوف الفرنسى پول ريكير Paul Ricoeur . إنه طريق إلى الكليات عبر التجربة الشخصية المستمرة. وهذا الجانب التقدمى للرموز والأساطير هو الذى يكاد يُحذف باكمله فى المنهج الفرويدى التقليدى فى التحليل النفسى .

هذا الوعي الحـــاد الـــذي وصفناه بأنه ســمة مميــزة للمواجهـــة ، والحالة التي نتغلب فيـهـا على القسـمـة الثنائيـة بين التـجـربة الشـخـصيـة والواقـع الموضـوعي والتي تتـولد فيـهـا الرمــوز التي تكشف عن معنى جـديد .. هذا الوعي يسمي - تاريخيا - النشوة (أو الوجـد Ecstasy) . والنشـوة مثل الشهـوة العـارمة ، هـي صفـة من صـفـات العـاطفة Emotian (أو على نحـو أدق ، هـي صـفـة عـلاقـة أحـد جوانبـهـا عـاطفي) دون أن تكـون كـمـيـة . والنشـوة هي التـجـاوز المؤقـت للقـسـمـة الثنائيـة إلى ذات وموضـوع . ومن الطريف أننا نتفادى هـذه المشكلة في علم النفس ، باستثناء شهير قام بـه ماسلو Maslaw بكتابه عن « تجـربة الـذروة » Peak Experience ، وإما لو تحدثنـا عن النشـوة فسيكون حديثنا متضمنا للقدح، أو مفترضا أنها من الأمـور العصابيـة .

وتجلب تجـربـة المواجهـة فيـمـا تجلـب القلق أيضـا ولست بحاجـة إلى تذكيركـم بعـد مناقشـة تجربة جياكومتي ، عن الخوف والرعدة اللذين يلمان بالفنانـين والمبدعين في لحظـات مواجهتهـم المبدعة ، وما أسـطورة بروميثيوس إلا التعبـير الكلاسيكي عن القلق وقـد لاحظ دابليو . هـ . أودن W.H. Auden ذات مـرة أنـه يعـاني القلق دائمـا عندمـا يكتب الشـعـر إلا حين « يلعب » . ومـن الممكن تعريف « اللعـب » بأنــه المواجهة التـي يمـكن أن يـوضـع فيها القـلق - مؤقـتـا - بـين قـوسـين .أمـا فـي الابـــداع الـناضـــج ، فـلا مـفـر مـــن مـــواجهة الـقلق إذا كان لابد للفـنان (ونحن المستفيدون من عمله فيما بعد) من أن يستمــتع بالفـرح في عملـه المُبْدِع .

ولقـد تأثـــرت بدراســات فـرانك بارون Frank Barron عن الأشـخاص

المبدعين فى الفن والعلم [١١] ، إذ يصورهم فى حالة مواجهة مباشرة مع قلقهم .

ويميز بارون أشخاصه المبدعين بأنهم أولئك الذين اعترف أندادهم بأنهم قاموا بإسهامات ، متميزة فى مجالهم. وقد أطلعهم ـ كما أطلع جماعة رقابة من الأشخاص الأسوياء – على مجموعة من البطاقات شبيهة ببطاقات رورشاخ ، يتضمن بعضها تخطيطات منتظمة مرئية ، وبعضها الآخر تخطيطات مضطربة لا متماثلة، مهوشة. أما الأشخاص « الأسوياء » Normal فقد اختاروا البطاقات المنتظمة المتماثلة بوصفها البطاقات التى يحبونها أكثر من غيرها فهم يحبون أن يكون عالمهم « فى الفورمة » In Shape. على حين أن الأشخاص المبدعين اختاروا البطاقات المهوشة المضطربة، إذ وجدوا أنها أكثر تحديا وإثارة للاهتمام. ومن الممكن أن يشبهوا الاله فى سفر التكوين ، الذى خلق النظام من العماء Chaos . فهم قد اختاروا العالم « المكسور » (أو المشروخ) ، واستخلصوا السرور من مواجهته وتشكيله فى شئ من النظام . وبالتالى فإن باستطاعتهم أن يتقبلوا القلق وأن يستخدموه فى صياغة عالمهم المضطرب بحيث يكون « أقرب إلى مشيئة قلوبهم » .

والقلق ـ وفقا للنظرية المقترحة هنا ـ يُفهم على أنه مقترن بزعزعة علاقة الذات ـ العالم التى تحدث فى المواجهة. إذ أن إحساسنا بالهوية يتهدده الخطر، والعالم ليس كما خبرناه من قبل، ولما كانت الذات والعالم متضايفيْن دائما، فنحن لم نعد كما كنا من قبل فها هو الماضى والحاضر والمستقبل تشكل صورةً (جشطالت)

Frank Bar- « Creatian and Encounter, »Scientific American (11) (September,1958) P.1-9. ron,

فرانك بارون : « الابداع والمواجهة » فى مجلة « العلم الأمريكى » (عدد سبتمبر ١٩٥٨) ص ١-٩ .

جديدة . ومن الجلي أن هذا لا يصدق تمام الصدق إلا في حالات نادرة (كأن يرحل جوجان إلى جزر البحر الجنوبي، أو أن يصير فان جوخ عصابيا)، ولكن من الحق أن المواجهة المبدعة تعمل إلى حد ما على تغيير علاقة الذات ـ العالم، والقلق الذي نشعر به هو استئصال مؤقت للجذور وفقدان التوجه. إنه قلق العدم .

والمبدعون من الناس كما أراهم، يتميزون بأنهم يستطيعون معايشة القلق، وإن كان الثمن الذي يدفعونه باهظا، إذ يدفعونه بالافتقار إلى الأمـان، والحساسية المفرطة، وعدم القدرة على الدفاع عن أنفسهم في مقابل هبة « الجنون الالهي» إذا شئنا أن نستعير العبارة التي استخدمها الإغريق القدماء. ذلك أنهم لم يهربوا من اللاوجود، وإنما بمواجهته ومصارعته، أجبروه على إنتاج الوجود. وطرقوا باب الصمت انتظارا لإجابة الموسيقى، وطاردوا اللامعنى حتى أرغموه على أن يكون له معنى.*

= * مادمت قد أخذت على عاتقي تأييد التأمل في مرحلة مبكرة (الفصل الأول) ،أجد من الضروري بيان إختلافي مع الدعوة لنوع من الاسترخاء وأعني به التأمل المتعالي -Trana-cendental Meditation على أنه « علم العقل المبدع » ، وأنه ينشّط التفكير المبدع . وقد ألقي بارون أبحاثه ـ كما فعلت أنا ـ في المؤتمرات الاقليمية التي عقدتها TM. واختبار البطاقة الذي أشرت إليه آنفا قد أعطيت لبعض المجموعات التي تعتنق التأمل المتعالي ، وكانت النتائج (التي لم تنشر بعد) سلبية ـ أي أن المتأملين كانوا يميلون إلى اختيار البطاقات ذات الأشكال المنتظمة المتماثلة -وهذا عكس نتائج « بارون » مع الأشخاص المبدعين بوجه خاص، وكذلك درس جاري شفارتس Gary Swarty المدرسين الذين يقومون بتدريس التأمل المتعالي فوجد أنه في اختبارات الابداع، كانت النتائج أسوأ أو على الأقل مثل مجموعات المراقبة. (انظر مجلة علم النفس اليوم « عدد يوليو ١٩٧٥ » .

وعندما أنهمك في كتابة شئ مهم بالنسبة لي، فإنني لو انخرطت في فترة التأمل المعتادة التي تستغرق عشرين دقيقة قبل الكتابة، فإن عالمي يصبح شديد الاستقامة، منتظما إلى أقصى حد فلا أجد ما أكتب عنه . وهنا تتلاشى مواجهتي هباءً منثورا وكل «مشاكلي» قد =

=حلّت وأشعر بالنعيم والسعادة ولكنني لاأستطيع الكتابة.

أنا أوثـر إذن أن أتحمل الفوضى، وأن أواجـه « التعقيد والحيرة » على حد تعبير بـارون. ثـم أراني مجبرا بهـذه الفوضى على البحث عن النظام، وأن أناضل حتى أستطيع أن أجد شكلا كامنا أعمق. وأعـتـقـد حينئذ أنني منخرط فيـمـا يصـفـه مـاكليش بأنه الصـراع مع اللامعنى وصمت العالم حتى أتمسكن من إرغامه على أن يكون له معنى وحتى أجعـل الصمت يجيب، واللاوجـود وجودا. وبعـد فـترة الصـباح التي أقضيها فـي الكتابـة، أستطيـع عنـدئذ أن استخدم هذا حق، إنه يعمل على تقدم جانب واحد من جوانب الابداع، ألا وهو التلقائيـة و « شـعـور المـرء بذاته في العـالم » على نحـو حـدسي، وأشـيـاء من هذا القبيل مرتبطة بـ «الراحـة » التي يتحـدث عنهـا مـاهاريشي Maharisihi كثـيرا. هـذه هـي الجـوانب الابـداع المرتبطـة بلعـب الأطفـال. غـيـر أن TM (التأمل المتعالى) يستبعد تماما عنصر المواجهة الذي هو شرط أساسي للإبداع الناضج، وجوانب الصراع، والتـوتر والاصـرار البناء ـ أعنـي العـواطـف التي عاناها چياكومـتي في الوصـف الذي أورده لـسورد ـ منسـيّة تمـاما في TM (التأمل المتعالى).

وقد ناقشت هذه المسألة مع فرانك بارون، العـالم النفساني في جامعة كاليفورنيا بسانتا كروز، وهو في رأيي المرجع الأساسي في سيكلوچية الابداع في بلادنا.

التأمـل في غرضه الحقيقي.. ألا وهـو الاسترخـاء العميـق عقـلا وجسـدا.

ومن سوء حظ هذه الحركة ـ من حيث أنها تنذر برد فعل قوي ضدها في المستقبل ـ أن زعمـاءها ليسوا أكثر انفتاحا. لقيود الـ T M والماهاريشي وجميع الأوصـاف التي رأيتها عند T M تفترض أن إنجيل مـاهاريشي. لا ينطوي على أية قـيـود على الاطلاق. ولاولئك الذين يريدون الاطلاع على صورة أكمل، أوصي بقراءة المقالة التي كتبتها كونستانس هولدن Constance Holden تحت عنوان: « جامعة مـاهاريشي الدولية: «علم العقل المبدع» مجلة العلم، المجلد ١٨٧ (٢٨ مارس ١٩٧٥)، ١١٧٦.

' Mahariahi International University : Sience of creative Intelligence, " Science , Vol . 187 (March 28 , 1976) .

* * *

الفصل الخامس

كاهنة دلفي بوصفها معالجة نفسية

في جبال دلفي ينتصب معبد ظل قرونا عديدة على جانب عظيم من الأهمية للإغريق القدماء، وكان الإغريق يتميزون بعبقرية إقامة معابدهم في أماكن ساحرة، غير أن دلفي تتمتع بفخامة خاصة إذ يمتد تحتها سهل طويل بين سلاسل الجبال الراسخة من جانب، وخليج كورنثة بخضرته الزرقاء الداكنة من الجانب الآخر. إنه مكان يخالج المرء فيه على الفور إحساس بالرهبة والعظمة إحساس يلائم طبيعة المعبد. وهنا كان الإغريق يجدون العون المنشود في مواجهة قلقهم . ففي هذا المعبد، ابتداء من عصر الفوضى القديم حتى العصور الكلاسيكية كان أبوللو يدلي بمشورته من خلال كاهنته. وهنا وجد سقراط، منقوشة على جدار قاعة المدخل الموصلة إلى المعبد عبارته الشهيرة « إعرف نفسك » ' Know Thyself ' التي اصبحت منذ ذلك الحين وصية الشفاء المركزية في العلاج النفسي .

والانسان الاغريقي المرهف الحس، الذي يساوره القلق على نفسه وعلى أسرته، وعلى مستقبله في تلك الأزمنة المضطربة ـ يستطيع أن يلتمس الهداية هنا، ذلك أن أبوللو كان يعرف معنى « الألعاب المعقدة التي تلعبها الآلهة مع بني

البشر »، كما يقول الاستاذ إي . ر. دودز E.R.Dodds . ففي دراسته الممتازة عن اللامعقول في الحضارة الاغريقية القديمة يمضي قائلا:

« ما كان المجتمع الاغريقي أن يتحمل ـ بدون دلفي ـ تلك التوترات التي خضع لها في العصر البدائي القديم، والاحساس الساحق بالجهل الانساني، والافتقار إلى الأمن الانساني، والرعب من البوارق الإلهية Phthonos ، والخوف من الأبخرة العفنة Miasma ـ كل هذا العبء المتراكم من تلك الاحاسيس لم يكن من سبيل إلى احتماله دون الطمأنينة التي يمكن أن يهبها ذلك المشير الإلهي العالم بكل شيء، والاطمئنان بأن هناك وراء هذا العماء تكمن المعرفة والقصد »[1].

وكان القلق الذي يساعد أبوللو الناس على مواجهته هو الخوف الذي يصاحب مرحلة في سبيلها إلى التشكُّل، والتخمير، والابداع، والتوسع بقوة ومن المهم أن ندرك أنه لم يكن قلقا عصابيا يتسم بالانسحاب، والكبت، والحيلولة دون انطلاق الحيوية وكانت المرحلة البدائية الغابرة في الاغريق القديمة هي زمن البزوغ والنمو الحيوي المشحون بالكرب الناجم عن التوسع في الحدود الخارجية والداخلية. فكان الأغريق يعانون قلق الامكانيات الجديدة، نفسيا، وسياسيا وجماليا، وروحيا. هذه الامكانيات الجديدة، والقلق الذي يصاحب دائما مثل هذه التحديات، فُرض عليهم سواء أرادوه أو لم يريدوه.

وصعد معبد دلفي إلى مكانته المرموقة في عصر كان فيه الاستقرار القديم ونظام العائلة آخذيْن في الانهيار، والفرد بسبيله إلى أن يتحمل المسئولية عن نفسه على عاتقه. وفي اليونان الهوميرية، كانت بينيلوبي Penelope زوجة أوديسيوس وإبنها تليماك Telemachus يستطيعان رعاية شئونهما سواء كان أوديسيوس موجودا، أو مشتركا في حروب طروادة، أو تتقاذفه الأمواج سنوات عشر « في البحر القاتم قتامة النبيذ ». أما الآن، في المرحلة القديمة ،

(١) إي . ر. دودز، « الاغريق واللامعقول » (بركلي ، ١٩٦٤) ص ٧٥ .
E.R.Dodds, The greeks and the Irrational (Berkeley , 1964) p.75.

فلا بد أن تتلاحم العائلات لتكوين المدن وما من شاب في سن تليماك إلا ويشعر بأنه يقف على شفا عصر عليه أن يختار فيه مستقبله الخاص وأن يجد مكانه الخاص من كجزء مدينة جديدة. وما أخصب أسطورة الفتى تليماك للكتّاب المحدثين الذين يبحثون عن هويتهم الخاصة !

وهاهو جيمس جويس Jamas Joyce يعرض جانبا منها في « أوليس » كما يشيرتوماس وولف Thomas Wolfe. كثيرا إلى تليماك بوصفها أسطورة البحث عن الأب، والتي كانت بحق بحث وولف نفسه كما كانت بحث الإغريقي القديم، وقد وجد وولف، شأنه في ذلك شأن أي تليماك حديث ، هذه الحقيقة العويصة الباردة ألا وهي « إنك لا تستطيع العودة إلى البيت مرة أخرى » .

وكانت الدول ـ المدنية تناضل في حالة من الفوضوية، طاغية إثر طاغية (وهي كلمة لم يكن لها في اليونانية الايحاءات المدمرة التي تنطوي عليها في اللغة الانجليزية) (١). وقد حاول القادة الثائرون أن يضفوا على السلطة الجديدة شيئا من النظام وبدأت في الظهور أشكال جديدة لحكم الدول ـ المدنية وقوانين جديدة، وتأويلات للآلهة، وهذا كله أعطى للفرد قوى نفسية جديدة. وفي مثل هذه المرحلة من التغير والنمو، يكون الانبثاق emergence شيئا يعانيه الفرد على أنه حالة طوارئ Emergency ، بكل مايصاحبه من توتر متوقع Attendant .

وفي هذا المناخ المضطرب ظهر رمز أبوللو ومعبده في دلفي، والأساطير الثرية التي أسست عليهما .

---

(١) كلمة Tyrannos (طاغية) تشير ببساطة إلى حاكم مطلق ، من النمط الذي يظهر عادة في عهود التذمر السياسي والتغير. وبعض هؤلاء « الطغاة » مثل بسيستراتوس Pi-sistratus « لطاغية أثينا » الذي حكم في أواخر القرن السادس، ينظر إليه على أنه حاكم صالح عند المؤرخين ، وعند بعض اليونانيين المحدثين . وأذكر جيدا دهشتي عندما سمعت الصبيان في مدرسة في اليونان كنت أقوم بالتدريس فيها يتحدثون عن بسيستراتوس بنفس الاعجاب ـ وإن لم يكن بنفس المقدار ـ الذي يتحدث به أهل بلادنا عن جورج واشنطن .

— ١ —

من المهم أن نتذكر أن أبوللو هو إلـه **الشكـل** ، إله العقـل والمنطـق فليس من المصادفـة أن أصبح هـذا المعبد المهم في ذلك الزمان المضطرب وأنـه من خـلال هـذا الاله – إله التناسب والتـوازن بحث المواطنون عن التـأكـد من أن المعنى والقصد وراء هذه الفوضى الظاهـرة .وكـان الشكل والتناسب والوَسَط الذهبي أمورا أسـاسيـة إذا أراد هـؤلاء الناس أن يكبحـوا جـمـاح شـهـواتهم العميقة ، لا من أجل ترويض هذه الشهوات، وإنما لتحويل القـوى الشيطانية التى يعرفهـا اليونانيـون فى الطبيعة وفى أنفسهم إلى استـخدام بنّاء. وكـذلك كـان أبوللو إله الفـن حيث أن الرشـاقة من السمات الأساسية للجمـال. والحـق أن « برناسوس » Parnassus – وهو الجبل الذى يقع معبد دلفى على أحد جوانبه، قد أصبح في كل اللغات رمزا لتمجيد فضائل العقل.

ونزداد تقديرا للمعنى الغنـى الذى يحيط بمثل هـذه الأسطـورة إذا ذكرنا أن « أبوللو » هـو إله النور.. ولا نعنى نور الشـمس وحـده، بل نور الذهـن، نور العقل، نور البصيرة . ويسـمىّ فى كثير من الأحيان باسـم هيليوس Helios ، وهى الكلمة اليونانية التى تعنى الشمس، كما يسمى أيضا « فويبوس أبوللو » Phoebus Apollo أى إله الاشـراق والاشـعـاع. وأخـيـرا نذكـر أمس نقطة بموضوعنا كله : وهى أن أبوللو هـو إله الشفاء والصحة وأن ابنه آسكليبيـوس Asclepius هو إله الطب .

جـمـيع هذه الصـفـات التى خُلعت على أبوللو ، والتى أنشـأتهـا العـمليات اللاشعورية الجمعية فى أساطير القرون المظلمة السابقة على هوميروس، قد

التحمت في نسيجها دلالة الخيال الأدبي والمجاز الرمزي . فأن يكون هذا الاله هو إله المشورة الحسنة، وصاحب البصيرة النفسيـة والروحية والذى يقوم بالارشاد والهداية في عصر شديد الحيوية وذى باع كبير في تشكيل الناس ـ ما أشد اتساق هـذا الاختيار وأحفله بالمعنى! والرجـل الأثيني الذى يشرع في رحلته إلى دلفـى لاستخـارة أبوللو سـوف يدير في خياله في كل لحظة من لحظات رحلته شخصية هذا الاله، إله النور والشفـاء. وقد ناشدنا إسبينوزا Spinoza أن نركّز انتباهنا على فضيلة مبتغاة، وعلى هذا النحو نميل إلى اكتسابها . وهذا في أغلب الظن ما سيفعله رجلنا الاغريقى في رحلته، وستكون العمليات النفسية، والتوقع، والرجاء، والايمان عواطف تعتمل فـى نفسه فعلا. وهكذا ممكن أن يسهم إيحائيا في «علاج» نفسه وتكون مقاصدة الشعورية وتوجهاته الأعمق ملتزمة فعلا بالحدث الذى يوشك على الوقوع. ذلك أنه بالنسبة للانسان الذى يشارك في تلك الأمور، تحمل الرموز والأساطير قـوتها الشفائية، الخاصة بها .

هذا الفصل إذن هو مقال عن «إبداع الانسان لنفسه» فالذات مكوَّنة، على حافة نموها، من النماذج، والأشكال، والاستعارات والأساطير وكل أنواع المضامين النفسية الأخرى التى تمنحها الاتجاه في إبداعها لذاتها . وهذه العملية تجرى باستمرار. والذات ـ كما قال كيركجور بحق ـ ليست إلا ماتكونه في عملية الصيرورة . وعلى الرغم من الحتمية الواضحة في الحياة البشرية ـ وبخاصة في الجانب الجسمى من ذات الانسان في الأشياء البسيطة مثل لون عينيه وطوله وعمره النسبى في الحياة، وما شاكل ذلك ـ هناك أيضا وبوضـوح مماثل هذا العنصر الخاص بالتوجيه الذاتي. والتفكير وإبداع الذات أمران لا ينفصلان وعندما نصبح في وعى بكل التخيلات التى نرى فيها أنفسنا في المستقبل،

ونوجّه أنفسنا في هذا الطريق أو ذلك ـ فإن هذا الجانب يصبح واضحا تمام الوضوح .

هذا التأثير المستمر على توجيه تطور المرء يجرى فى بلاد الاغريق القديمة أو فى أمريكا الحديثة، أيا كان إنكارنا له. ونصيحة إسپينوزا الذى ذكرناها آنفا هى إحدى الطرق التى تتحقق بها وظيفة هذا التوجيه. وتشهد كمية الأساطير التى نتناول تناسخ فرد فى شكل أو آخر من أشكال الحياة بحيث يعتمد وضعه (أو مكانته). على الكيفية التى عاش بها هذا الشخص حياته من قبل ـ تشهد بإدراك الجنس البشرى فى تجربته أن الفرد يحمل على عاتقه شيئا من المسئولية عن الكيفية التى عاش بها حياته. والحجة التى يدلى بها سارتر على أننا نخترع أنفسنا بفضل مجموعة إختياراتنا قد تنطوى على أكثر مما تستحقه من التوكيد، غير أن ما فيها من حق جزئى ينبغى الاعتراف به على كل حال .

إن الحرية الانسانية تتطلب من قدرتنا أن نتوقف بين المنبه stimulus وبين الاستجابة، وفي هذه الوقفة ينبغي أن تختار الاستجابة التى نريد أن نلقى بثقلنا نحوها . ذلك أن قدرتنا على إبداع أنفسنا ـ تأسيسا على هذه الحرية ـ لا تنفصل عن الوعى أو الادراك الذاتى.

ونحن معنيون هنا بالكيفية التى تشجع فيها كاهنة دلفى هذه العملية من الابداع الذاتى. من الواضح أن الابداع الذاتى يتحقق بآمالنا ومثلنا العليا، وصورنا، وكل صنوف التركيبات المتخيلة التى نتمسك بها حينابعد حين فى طليعة انتباهنا.هذه «النماذج» تؤدى وظيفتها شعوريا ولا شعوريا على السواء، وهى تتبدى فى الخيال كما تتبدى فى السلوك الصريح. والمصطلح الذى يلخِّص هذه

العملية هو الرموز والأساطير وقد كان معبد دلفى تعبيرا عينيا عن هذه الرموز والأساطير، كما أنه كان المكان الذى تجسدت فيه على نحو طقوسى وشعائرى .

— ٢ —

نستطيع أن نلمح فى تماثيل أبوللو الرائعة ـ المنحوتة فى ذلك الزمان ـ الشخصية القديمة بشكلها القوى المستقيم، والجمال الهادئ الذى يحيط بالرأس، وقسماته المنتظمة البليغة التى يتحكم فى إنفعالاتها حتى إلى تلك الابتسامة «العارفة» الخفيفة المرتسمة على الثغر الذى يوشك أن يكون مستقيما ـ كيف يمكن لهذا الاله أن يكون الرمز الذى رأى فيه الفنانون الاغريق وغيرهم من مواطنى تلك الفترة النظام الذى يشتاقون إليه ؟ هناك سمة عجيبة فى تلك التماثيل التى شهدتها: العينان واسعتان، جعلهما النحات أكثر انفتاحا من العيون العادية فى رأس رجل حى أو فى التماثيل الإغريقية الكلاسيكية . ولو أنك تجولت خلال الحجرة الأغريقية القديمة فى المتحف القومى فى أثينا، فسوف يصدمك أن العينين الواسعتين لتماثيل أبوللو المنحوتة من المرمر تكشف عن تعبير من التيقظ الحاد. فهى على العكس تماما من العينين المسترخيتين اللتين يراودهما النوم فى رأس هرمس Hermes المألوفة التى نحتها براكسيتيلس Praxiteles فى القرن الرابع قبل الميلاد .

هاتان العينان الواسعتان لأبوللو القديم تدلان على التوجس. إنهما تعبران عن القلق.. عن الوعى المفرط، « التلفت حول » المرء على كل جانب خوفا من أن يحدث شئ مجهول ـ وهذا يتلاءم مع الحياة فى عصره يضطرب بالتغير. وثمة توازٍ ملحوظ بين هذين العينين وبين العيون التى تطل من شخصيات ما يكل

آنجلو التى رسمت فى مرحلة تكوينية أخرى هى عصر النهضة. فمعظم الكائنات البشرية التى رسمها ما يكل آنجلو قوية ظافرة كما تبدو للنظرة الأولى، فإذا اقتربنا منها لفحص أوثق رأينا أن لها عيونا واسعة، وهذه علامة واضحة على القلق. وما يكل آنجلو فى الصور الذاتية التى رسمها لنفسه يرسم عيونا واسعة بشكل ملحوظ بالطريقة النمطية المميزة للخوف، وكأنما يريد أن يبرهن على أنه لا يعبرً عن التوترات الباطنة التى يعانيها عصره فحسب، بل عن نفسه أيضا بوصفه عضوا فى عصره .

واسترعت انتباه الشاعر ريلكه Rilke أيضا عينا أبوللو البارزتان وما تنطويان عليه من قدرة على النظر فى الأعماق. و فى قصيدته « الجذع القديم لأبوللو » Archaic Tarso of Apollo يتحدث عن «رأسه الأسطورى الذى نضجت فيه المقلتان » ويمضى قائلا :

.... غيـــر أن

جذعه مازال متوهجا كالشمعدان

ونظرته هى وحدها التى تغض من طرفها،

صامدة، وامضة. وإلا ما استطاع منحنى الصدر

يعشى بصرك، أو كان من الممكن عند انعطافة

الخصرين الخفيفة – أن تسرى الابتسامة إلى ذلك

المنتصف الذى يحمل القدرة على النسل.

ولولا ذلك لانتصب هذا الحجر مبتورا

قصيرا تحت إقتحامة الكتفين الشفافة،

وما استطاع أن ينفض انتفاضة الوحوش الكاسرة.

عندما تنقض على فريستها، أو أن يتجاوز قسماته .... كالنجم :

فليس هناك مكان لا يراك،

ولهذا كان عليك أن تغيرّ من حياتك (٣) .

في هذه الصورة الحية نلاحظ كيف استطاع ريلكه أن يقتنص ماهية «الشهوة الموجهة» Controlled Passion ـ لا الشهوة المكبوتة أو المكبوحة، التي كانت هي الهدف خلال العصر الهلنستي المتأخر الذي ظهر فيه المعلمون الاغريق الذين كانوا يجزعون من النوازع الحيوية . وما أبعد الفرق بين تأويل ريلكه وبين الكبت الفيكتوري أو كبح النوازع . هؤلاء الاغريق الأوائل الذين كانوا يبكون ويعشقون ويقتلون بحماسة، كانوا يمجدون العاطفة العنيفة وإيروس وكل ما هو جنيّ Daimonic وشيطاني. (الأشخاص الذين يشتغلون بالعلاج النفسي في هذه الأيام، حين يدرسون المشهد العجيب في الاغريق القديمة ـ يلاحظون أن الشخص القوى مثل أوديسيوس أو أخيل Achilles هو الذي يبكي). بيد أن الإغريق كانوا يعلمون أيضا أن هذه الدوافع ينبغي أن توجّه ويُتَحكّم فيها. وكانوا يعتقدون أن ماهية الشخص الفاضل (arete) هي أن يختار عواطفه لا أن تختاره عواطفه. وفي هذا ما يفسر لماذا لم يكونوا في حاجة إلى معاناة عملية الإخصاء الذاتي بانكار « الإيروس » و«الجنيّ»ـ كما يفعل الانسان الحديث .

ومعنى تلك المرحلة البدائية القديمة واضح في عبارة ريلكة العجيبة الأخيرة التي تبدو لأول وهلة (ولأول وهلة فحسب) أنها استنتاج غير متفق مع المقدمات A Non Sequitur : «فما عليك إلا أن تغيرّ من حياتك » .

---

(٣) ترجمات من أشعار راينرماريا ريلكه – ترجمة م.د. هرترنورتون (نيويورك ١٩٣٨) ص ١٨١ .

Translations from the poetry of Rainer Maria rilke,trans by M.D. Herter Norton (new york, 1938) , P.181 .

هــــذا هـو نداء الجمـــــال المثير، والطلب الذى يفرضــه الجمـــــال علينا بمجرد حضــــوره بأن نشارك أيضا فى الشـــكل الجـديد. وهذا النداء لا يمت بصلة إلى الأخــــلاق (لا عـلاقة له على الاطلاق بالخطأ أو الصواب)، ولكنه مع ذلك طلب مســتبـد يضمنا بقـوة وإصرار لكى نُدْخل فى حـيـاتنا هذا الشكل المنســجم الجديد .

— ٣ —

كيف كانت كاهنة أبوللو تؤدى وظيفتها، ومن أين جاءت النصيحة التى كانت تسديها ؟ هذه بالطبع أسئلة مثيرة ولكـن يبدو لسوء الحظ أن ما يعرف عن هذا الموضـوع قليـل . فقد كـان المعبد محـجـوبا بالسرية، وهؤلاء الذين يديرونه لا يستطيعـون إلا إسداء المشورة للآخرين، ولكنهم يستطيعـون أيضـا الاحـتفـاظ بأســـرارهم . ويخبرنا أفلاطـــون بأن « الجنون التنبــؤى » اســـتولى على « بيثيا » Pythia الكاهنة التى كانت تخــــدم فى المعبد بوصفها المتحدثة باســـم أبوللو. ومن هذا الجنون كانت يخرج شئ من « البصـــيرة المبدعة » بهذا كان يعتقد أفلاطون الذى كان يمثّل مستويات من الوعى أعمق من المعتاد وقد كتب فى فايدروس Phaedrus قائلا: « ونحــــن مدينون إلى جنـــونهم بكثير من المنافع التى كانت « بيثيا » كاهنة دلفى وكاهنة معـــبد دودونا قادرتين على إغداقهـــا على اليونان سواء فى الحـــياة الخاصة أو الحياة العـامة ، ذلك أنهما عندما تكونان فـى عقلهما السليـم ، كانت إنجازاتهما قليلة أو تكـاد ألا تكون شيئا »(٤) وهذا قـول واضـح عن جـانب من جـوانب النزاع الذى نشب

---

(٤) روبير فلاسليير، «الكاهنات الاغريقيات» ترجمة دوجلاس جارمان (نيويورك ١٩٦٥) ص٤٩
Robert Flaceliére, Grreek Oracles Trans. Douglas Garman (Newyork.. 1965) p.49

خلال التاريخ الانساني عن مصدر الإلهام : ـ وهو إلى أى مدى يأتى الابداع من الجنـــون ؟

وكان أبوللو يتحدث بلسان الشخص المتكلم (الأول) من خلال بيثيا فكان صوتها يتغير ويتحشرج ويصدر من حلقومها، ويرتجف كأنه وسيلة إتصال حديثة. ويقال إن الاله قد تلبّس بها فى نفس لحظة النوبة التى تستولى عليها أو لحظة الحماسة Enthusiasm، وهى كلمة مشتقة من الجذر Em- thea (« فى الاله » in god) كما يوحى حرفيا.

وقبل بدء « الجلسة » تجتاز الكاهنة أفعالا طقوسية متعددة، كأن تأخذ حمامًا خاصا، وربما شربت من نبع مقدس، مع افتراض آثار الايحاء الذاتى المعتادة غير أن القول المتكرر فى كثير من الأحيان بأنها تتنفس أبخرة صادرة من شرخ فى صخور المعبد، ولهذه الأبخرة تأثير منومّ ـ هذا القول يذكره الأستاذ دودز فى إيجـــاز:

«أمـــا فيمـــا يتعـلق « بالأبخـــرة » الشـــهيرة التـى نسبت ذات مـــرة إلى إلهـــام بيثيـــا فى شئ من الثقة، فهى إختراع هللينســـتى،... وقد أدرك بلـــوتارك ـ الذى كـــان يعلـــم الحقائق ـ الصعــــوبات التى تواجه نظـــرية الأبخـــرة ويبـــدو أنه رفضهـــا جملـــة وتفصيـــلا ، غيـــر أن البـــاحثين فـــى القــــرن التـــاســـع عـشــــر شـــأنهم فى ذلك شـــأن الفـــلاسفـــة الرواقيين، تمـسكوا فـــى شئ مــــن الارتيـــاح بتفسير مـــادى متماسك معقول ».(٥)

---

(٥) دودز ـ ٧٣ .

ويمضي نوبز في ملاحظته مدعّما وجهة نظره فيقول: «لم يُسْمع إلا القليل عن هذه النظرية من أن يثبت الحفريات الفرنسية أنه لا توجد اليوم أية أبخرة، أو أي « شرخ » يمكن أن تكون هذه الأبخرة قد صدرت عنها » (٦) . ومن الجلي أن هذه التفسيرات لم نعد بحاجة إليها بالنظر إلى البنية التي تقدمها اليوم كل من الانثروبولوجيا وعلم نفس الشواذ Abnormal Psychology.

ويبدو أن الكاهنات البيثيات كنَّ نسوة بسيطات غير متعلمات (ويتحدث بلوتارك عن واحدة منهن كانت إبنة فلاح) . غير أن الباحثين المحدثين يحملون احتراما عظيما للنظام الذكي الذي تتبعه الراهبة . وتكشف قرارات دلفي عن علامات كافية تدل على سياسة متسقة لاقناع الباحثين بأن الذكاء الانساني والحدس، والبصيرة كانت تلعب دورا حاسما في العملية . ومع أن أبوللو ارتكب بعض الفظائع الشهيرة في تنبؤاته ونصيحته وبخاصة خلال الحروب الفارسية، فإن الإغريق باتخاذهم لموقف شبيه بالموقف الذي يتخذه اليوم كثير من الناس تجاه معالجيهم، غفروا له بسبب المشورة والمعونة التي أسداها لهم في مرات أخرى.

والنقطة التي تهمنا أكثر من أية نقطة أخرى هي وظيفة المعبد بوصفه رمزا اجتماعيا قادرا على استخراج البصائر قبل الشعورية واللاشعورية الجمعية Collective عند الأغريق . وقد كان للجانب الاجتماعي الجمعي لمعبد دلفي أساس متين : إذ كان المعبد مكرساً في الأرض لآلهات الأرض قبل تكريسه لأبوللو. وهو جمعي أيضا بالمعنى الذي كان به لديونيسيوس أيضا ـ وهو ضد أبوللو ـ نفوذ قوي في دلفي. وتبينّ أواني الزهر الاغريقية أبوللو وهو يمسك بيد ديونيسيوس، وأكبر الظن أن ذلك كان في معبد دلفي، ولا يغالي بلوتارك كثيرا

---

(٦) نفس المرجع .

حين يكتب قائلا : «فيما يتعلق بكاهنة دلفى ، فإن الدور الذى كان ديونيسيوس يقوم به، لم يكن أقل من دور أبوللو» (٧) .

وأى رمز حقيقى، بما يصاحبه من طقس احتفالى، يصبح المرآة التى تعكس البصائر، والامكانيات الجديدة، والحكمة الجديدة، وغيرها من الظواهر النفسية والروحية التى لا نجرؤ على تجربتها لحسابنا الخاص. ونحن لا نستطيع ذلك لسببين: الأول هو قلقنا الخاص: فالبصائر الجديدة تخيفنا فى معظم الأحيان، بل نستطيع أن نقول إن هذا على نحو نمطى.. هذا إذا أخذنا على عاتقنا وحدنا المسئولية الكاملة عنها وفى عصر تختمر فيه التغيرات، ربما جاءت هذه البصائر كثيرا، وهى تتطلب مسئولية نفسية وروحية أكبر مما يستطيع معظم الأفراد احتماله. وفى الأحلام يسمح الناس لأنفسهم بارتكاب أشياء، مثل قتل الأب أو الابن، أو قد يفكر المرء فى أن «أمى تبغضنى «على سبيل المثال، وهو شئ قد يكون من البشاعة أن يفكر فيه المرء أو يقوله فى الكلام العادى. ونحن نتردد فى التفكير فى هذا أو ماشاكل ذلك من أشياء حتى فى أحلام اليقظة، لأن المرء يشعر فى مثل هذه التخيلات بأنها تحمل مسئولية فردية أكبر مما تحمله أحلام الليل. بيد أننا لو زارنا حلم يقول هذا، أو سمعنا أبوللو يقوله من خلال كاهنته، فإننا نستطيع أن نكون أكثر صراحة فيما يتعلق بحقيقتنا الجديدة.

والسبب الثانى هو أننا نهرب من الغرور (أو التعجرف) Hubris ويستطيع سقراط أن يؤكد أن أبوللو قال عنه فى دلفى إنه أحكم من يعيش من الرجال، وهذا إدعاء ــ سواء كان نابعا من التهكم السقراطى أو لم يكن ــ فإنه ماكان يستطيع أبدا أن يقوله بلسانه عن نفسه.

---

(٧) فلاسليير Flaceliére – المرجع المذكور ، ص ٣٧ .

كيف يفسّر المرء مشورة الكاهنات ؟ هذا السؤال معناه أن نسأل : كيف يفسّر المرء رمزا؟ ذلك أن تخمينات الكاهنة كانت بعامة مغلفة بالشعر، وكانت تنطق في «صيحات وحشية» onomatopoeic وكــذلك في الكلام المنطوق وهذه « المادة الغُفْل » كان لابد من تفسيرها وحل طلاسمها » (٨) ومثل كل الأقوال التي تأتي على لسان وسطاء في كل العصور، كانت أقوال الكاهنة من الغموض بحيث لا تترك الطريق مفتوحا للتأويل فحسب، بل كانت **تتطلبه**. وكثيرا ما كانت قابلة لتأويلين مختلفين ، أو لأكثر من ذلك .

كانت العملية أشبه بتأويل حلم. وقد درج « هاري ستاك سليڤان » Harry Stack Sullivan تعليم طلبة التحليل النفسي أثناء التدريب بألا يفسروا الحلم وكأنه قانون الميديين. أو الفرس، بل أن يقترحوا معنيين مختلفين الشخص الذي يقومون بتحليله ، وبذلك يطلب منه أو منها أن يختار بينهما. ولا تكمن قيمة الأحلام، كما هي الحال في تلك التخمينات في أنها تعطي إجابة خاصة، ولكن في أنها تفتح مناطق جديدة في الواقع النفسي، وتهزنا هزاً عنيفا لتخرجنا من عاداتنا الروتينية المألوفة، وتلقي ضوءا على قطاع جديد من حياتنا. ومن ثمّ فإن أقــوال المعبد، مثل الأحلام، لم يــكن تلقّيها سلبيا، **بل كــان على المتلقين أن « يعيشوا » أنفسهم في تلك الرسالة .**

وفي خلال الحروب الفارسية ــ على سبيل المثال ــ عندما تضرع الأثينيون الذين ساورهم القلق ــ تضرعوا لأبوللو أن يهديهم سواء السبيل، جاءت الكلمة من الكاهنة تناشدهم أن يثقوا في « الجدار الخشبي »، وأثير جدل عنيف حول معنى هذا اللغز. ويخبرنا هيرودوت بالقصة على النحو التالي: « كان من رأي بعض

---

(٨) فلاسلير ، ص ٥٢ .

الشيوخ أن الاله يعنى أن يخبرهم بأن الأكروبول سينجو من الحرب، إذ كان هذا البناء يُدافع عنه في قديم الزمان سياج خشبي ، ورأى آخرون أن الاله يشير إلى سفن خشبية والتي يستحسن أن تكون على أهبة الاستعداد»وهذا أثار شطر آخر من النبوءة نقاشا ، إذ اعتقد البعض أنه ينبغي عليهم الابحار بلا قتال ليستقروا في أرض جديدة . غير أن ثيميستوكليس Themistocles أقنع الناس بأنه كان المقصود بهم أن يشتبكوا في معركة بحرية بالقرب من سالاميس Salamis ، وهذا مافعلوه إذ دمروا أسطول إكسركس Xerxes في إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ(٩).

وأيا كان مقصد كهنة دلفى ، فإن تأثير النبوءات الغامضة كان يرغم الضارعين والضارعات على أن يمعنوا الفكر في موقفهم من جديد، وأن يبحثوا الخطط، وأن يتصوروا إمكانيات جديدة.

وكان أبوللو يلقّب حقا «بالغامض»، وحتى لا يتخذ بعض المعالجين النفسيين الناشئين هذه المسألة ذريعة لغموضهم هم أنفسهم، فلنذكر هنا اختلافا بين العلاج الحديث وبين تخمينات الكاهنة. ذلك أن أقوال الكاهنات تأتي على مستوى قريب من لاشعور المتلقين، قريبا من الأحلام **الفعلية**، في مضاد تأويل الأحلام في ساعة علاجية. وأبوللو يتحدث من أبعاد أعمق في شعور المواطن والجماعة المجتمعة (أعنى المدنية). وهكذا يمكن أن يكون هناك غموض مبدع، يحدث في القول الأصلي (أو الحلم) وفي تفسير المواطن (أو المريض) له . وللكاهنة ميزة على المعالج المعاصر. وعلى كل حال أعتقد أن المعالج ينبغي أن يكون مقتضبا على قدر الامكان، تاركا الغموض الذي لا مفر منه للمريض!

---

(٩) هيرودوت ، التواريخ ، الكتاب السابع ، ١٤٠ - ١٤٤
Herodotus, The Histories , Book XII , 140-144

ولم تكن مشورات دلفي نصائح بالمعنى الدقيق، بل كانت منبّهات للفرد والجماعة للنظر إلى الداخل ، لطلب الفتوى من حدسهم وحكمتهم وكانت الكاهنة تضع المشكلة في سياق جديد حتى يمكن أن تسُرى بطريقة مختلفة، بطريقة تصير فيها الامكانيات الجديدة والتي لم يقتحمها الخيال بعدُ، جلية واضحة. ومن التصورات الخاطئة الشائعة أن مثل هذه المعابد، وكذلك العلاج الحديث ـ تنحو إلى أن تجعل الفرد أكثر سلبية وعلى هذا النحو يكون العلاج سيئًا وتأويل الكائنات مجافيا للحقيقة. وإنما ينبغي على كل منهما أن يفعل العكس تماما، إذ لابد لهما أن يتطلبا من الأفراد التعرف على إمكانياتهم الخاصة، وأن ينيروا جوانب جديدة من أنفسهم ومن علاقاتهم مع الآخرين . هذه العملية تنقر منبع الابداع في الناس، وهي تعمل على تحويلهم إلى الداخل صوب ينابيعهم الابداعية الخاصة.

وفي محاورة « الدفاع » Apologia، ينبئنا سقراط كيف حاول أن يحل معنى اللغز الذي وضعه الاله حين قال لصديقه خايريفون Chaerephon بأنه لايوجد في العالم من هو أحكم منه (من سقراط). وانتهى الفيلسوف إلى هذه النتيجة وهي أنه الأحكم لأنه اعترف بجهله ونصح الاله سقراط أيضا أن «إعرف نفسك». ومنذ ذلك الحين، فإن مفكرين من طراز نيتشة وكيركجور مافتئوا يحاولون سبر أغوار معنى نصيحة الاله، كما أننا مازلنا متحفزين للعثور على معانٍ جديدة لها، بل إن نيتشة يفسرها بأنها تعني عكس ما قد يتبادر إلى ذهن المرء لأول وهلة: « ماذا يعني الاله الذي أعلن « إعرف نفسك » لسقراط؟ ألعلّه كان يعني مصادفة « كف عن الاهتمام بنفسك »، و« كن موضوعيا؟ » وهذه الأقوال الصادرة عن الاله ـ شأنها شأن الرموز الحقيقية والأساطير ـ تكشف عن ثراء لا حد له، كلما تكشفت عن معانٍ جديدة شائقة.

— ٤ —

وهناك سبب آخر لأن تكون النبوءة ذات دلالة بوصفها تجسيدا للبصائر اللاشعورية الجمعية التي تحوزها الجماعة. وهنا يقوم الرمز أو الأسطورة بشاشة الاسقاط التي ترسم ملامح البصيرة والنبوءة واحتفالاتها ـ مثل بطاقات رورشاخ أو اختبار موراى Murray لتذوق الموضوع عبارة عن شاشة تنبه الدهشة وتحفز الخيال للعمل.

ولكن يجب أن أسارع لادراج تحرز ما . ذلك أن العملية التي تجرى في مثل هذا المكان والزمان يمكن أن تسمى «إسقاط» Projection . بأى معنى قادح للكلمة، سواء بالمعنى التحليل النفسى الذى «يسقط» فيه الفرد ماهو «مريض» وبالتالى مالا يستطيع مواجهته، أو بالمعنى النفسى التجريبى الذى يتضمن أن العملية ذاتية صرفة وأن البطاقات أو صور إختبار تفهم الموضوع TAT لا صلة لها بالنتيجة. وفى رأيى أن كلا من هذين الاستعمالين القادحين لكلمة إسقاط ينجم عن الاخفاق الشائع للانسان الغربى فى فهم طبيعة الرمز والأسطورة.

وليست «الشاشة» مجرد مرآة بيضاء، بل الأحرى أنها القطب الموضوعى الضرورى لاستدعاء العمليات الذاتية للوعى. وبطاقات رورشاخ هى الأشكال المحددة الحقيقية من الأسود والألوان الأخرى حتى ولو لم «ير» أحد من قبل فيها الأشياء التى يمكن أن تراها فيها. أنت أو أنا. مثل هذا «الاسقاط» ليس «ارتدادا» بأى حال من الأحوال ، سواء بالتعريف أو بأى شئ على أقل إحتراما من القدرة على أن تقول ماتريد أن تقوله فى جمل عقلية بدون البطاقات فهو بالأحرى تدريب مشروع صحى للخيال.

هذه العملية تجرى فى الفن عبر الأزمنة كلها فالألوان والقماش أشياء موضوعية لها مؤثرات قوية ووجودية على الفنان في إخراج أفكاره ورؤاه. والحق أن الفنان يرتبط بعلاقة جدلية لا بالطلاء والقماش فحسب، بل بالأشكال التى يشاهدها فى الطبيعة. والشاعر والموسيقى على علاقة مماثلة، مع لغتهما الموروثة والنغمات الموسيقية ويجرؤ كل من الفنان والشاعر والموسيقى على استخراج أشكال جديدة. وأنواع جديدة من الحيوية والمعنى. وهم محميون ـ على الأقل ولو بصورة جزئية ـ من «الاصابة بالجنون » فى هذه العملية للإظهار الأساسى عن طريق الشكل الذى تتيحه وسيلة الاتصال .. أعنى الألوان والرخام، والألفاظ والنغمات الموسيقية.

وهكذا يمكن أن يُنظر إلى معبد أبوللو في دلفي على أنه رمز اجتماعى مفيد للغاية. ونستطيع أن نفترض إذن أن بصائره تأتى بواسطة عملية اجتماعية رمزية تتضافر فيها العوامل الذاتية فى علاقة جدلية بعضها مع البعض الآخر. ولكل من يستخدم النبوءة استخداما صادقا، يمكن أن تتولد أشكال جديدة، وإمكانيات مثالية جديدة، وتركيبات أخلاقية ودينية جديدة ، يمكن أن تتولد من مستويات فى التجربة تكمن وتتعالى على وعى الفرد المستيقظ المعتاد. وقد لاحظنا أن أفلاطون قد أطلق على هذه العملية اسم وَجْد «الجنون التنبوئ ». والوجد منهج كان موضع الاشادة فى كل الأزمنة العلو على وعينا العادى، وطريقة تعيننا على بلوغ بصائر لانستطيع التوصل إليها بطريقة أخرى. وعنصر الوجد ـ أيا كان طفيفا ـ فهو جزء لا يتجزأ من كل رمز حقيقيا وكل أسطورة؟ لأننا لو شاركنا بصدق فى الرمز أو الأسطورة، فإننا منذ تلك اللحظة «نؤخذ خارج» أو «فيما وراء» أنفسنا .

والتناول السيكلوجى للرمز والأسطورة ليس إلا واحدا من طرائق ممكنة عديدة

وفى اختيارى لهذا التناول لاأريد أن أضفى طابعا نفسانيا صرفا على المعنى الدينى للأسطورة . فمن هذا الجانب الدينى للأسطورة نستخلص البصيرة (الوحى) الذى يصدر عن التفاعل الجدلى بين العناصر الذاتية فى الفرد والواقعة الموضوعية للنبوءة ، ولايمكن أن تكون الأسطورة ـ بالنسبة للمؤمن الصادق ـ أمرا نفسيا صرفا فهى تشمل دائما عنصرا من الوحى سواء من أبوللو الاغريقى، أو من إلوهيم Elohim العبرى أو «الوجود» الشرقى. ولو أننا حولنا هذا العنصر الدينى إلى شئ نفسانى صرف، فلن نكون قادرين على تقدير القوة التى كتب بها كل من إسخيلوس وسوفوكليس مسرحياتهما ، بل لن نكون قادرين على فهم ما يتحدثان عنه. فقد كان إسخيلوس وسوفوكليس يكتبان تراجيديات عظيمة بفضل الأبعاد الدينية للأساطير التى أتاحت أساسا بنائيا متينا لاعتقادهما فى كرامة الجنس البشرى ومعنى مصيره.

***

الفصل السادس

على حدود الإبداع

فى أمسية السبت من عطلة الأسبوع عقدت حديثًا فى ضاحية إيسالن – فى نيويورك – ندوةٌ لمناقشة الانسانية. وكانت الندوة تتألف من أشخاص عُرِفوا بحسن البصيرة وتنشيط الحوار من أمثال: جويس كارول أوتسن Goyce Carol Oates وجريجورى باتيسون Gregory Bateson ووليم إروين تومسون William Irwin Thampsan . وكان الجمهور يضم سبعا أو ثماني مئات من الأفراد المتلهفين، وقد هيأوا أنفسهم لمناقشة شائقة على أقل تقدير. وفى ملاحظاته الافتتاحية، ركز رئيس الندوة على هذا المحور الأساسى وهو أن «إمكانيات الكائن البشرى لا حدود لها» .

ولكن من الغريب أن نقول إنه لم يكن هناك – على ما يبدو – أية مشكلات للمناقشة. وقد شعر الجميع سواء من المشتركين فى الندوة أو جمهور النظارة – بالفراغ الهائل الذى يملأ الحجرة . وجميع القضايا المثيرة التى تناولها المشتركون فى الندوة بلهفة شديدة تلاشت على نحو غامض. وبينما كانت المناقشة تترنح متهالكة نحو نهاية أسيفة، تكاد تكون لا مجدية، كان السؤال الذى دار فى أذهان الجميع هو: «فيم كان الخطأ » ؟

. وأرى أن هذا القول: «الإمكانيات البشرية لا محدودة» مثبط للطاقة de - energizing ، وإذا أخذته على علاته، لم تعد هناك مشكلة على الاطلاق. كل ما يمكن أن تفعله هو أن تقف وتنشد هاليلُوياً Hallelujah (الشكر لله) ثم

تقفل عائدا إلى البيت فكل مشكلة سوف تحل عاجلا أو آجلا بتلك الإمكانيات اللامحدودة، ولن تتبقى سوى بعض المصاعب المؤقتة التي ستزول من تلقاء نفسها عندما يحين الوقت. وعلى عكس نية رئيس الندوة، فإن مثل هذه الأقوال تثير رعب المستمع فعلا : فهي أشبه بأن تضع شخصا ما في زورق ثم تدفع به إلى المحيط الهادي صوب انجلترا مودّعا إياه بذلك التعليق المرح «السماء وحدها هي الحد». ذلك أن راكب الزورق يعلم علم اليقين أن هناك أيضا حدا آخر حقيقيا لا مهرب منه هو: قاع المحيط !

و في هذه الملاحظات سأقوم بفحص الافتراض القائل بأن الحدود ليست شيئا لاسبيل إلى تجنبه في الحياة الانسانية فحسب، بل إن هذه الحدود ذات قيمة مهمة أيضا . وسوف أناقش أيضا الظاهرة التي مؤداها أن **الابداع نفسه يتطلب الحدود** لأن فعل الابداع ينشأ عن صراع الكائنات البشرية ضد ما يقيم لها الحدود.

ولنبدأ بقولنا إن هناك الحد الفيزيائي (أو الجسدي) الذي لا مهرب منه وهو الموت . فكل نفس ذائقة الموت في لحظة مقبلة مجهولة لنا ولا سبيل إلى التنبؤ بها . والمرض حد آخر وعندما نرهق أنفسنا بالعمل يحط علينا المرض بصورة أو بأخرى. وهناك حدود عصابية واضحة فلو أن الدم يتوقف عن التدفق إلى المخ حوالي دقيقتين، فسوف تحدث لنا أزمة أو سكتة أو إصابة بالغة من نوع أو آخر. ورغم أننا نستطيع أن نقوم بتحسين ذكائنا إلى درجة ما، فإنه يظل محدودا بصورة أساسية ببيئتنا الفيزيائية والعاطفية .

وهناك أيضا الحدود الميتافيزيقية التي هي أدعى إلى الاهتمام فكل منا قد ولد في أسرة معينة في بلد معين، و في لحظة تاريخية معينة، دون اختيار منا على الاطلاق . ولو أننا حاولنا إنكار هذه الحقائق كما فعل چاي جاتسبي Gay

Gatsby في رواية فيتزجيرالد Fitzgerald «جاتسبي العظيم»، فإننا نعمى أبصارنا عن الواقع ولا نجني غير الحسرة . ومن الحق أننا نستطيع أن نتجاوز إلى حد ما الحدود التى تفرضها خلفيات أسرتنا أو موقفنا التاريخي، غير أن مثل هذا التعالى لا يمكن أن يحدث إلا لأولئك الذين يتقبلون وجود حدهم كحقيقة يبدأون منها .

١ – قيمة الحـــدود

والوعى نفسه يولد من إدراك هذه الحدود . والوعى الانسانى هو السمة المميّزة لوجودنا ، وبدون الحدود ما كنا نستطيع أبدا تنميته . الوعى هو الادراك الذى ينبثق من التوتر بين الامكانيات والحدود . ويبدأ الأطفال فى إدراك الحدود عندما يلمسون أن الكرة مختلفة عنهم، والأم عامل محدد لهم من حيث أنها لا تغذيهم فى كل مرة يصرخون فيها من أجل الطعام. ومن خلال مجموعة من مثل هذه التجارب التحديدية يتعلمون تنمية القدرة على تمييز أنفسهم عن الآخرين وعن الأشياء وعلى تأخير رضاهم فلو لم تكن ثمة حدود، فلن يكون هناك وعى.

وقد تبدو مناقشتنا لأول وهلة مثبطة للهمة، ولكنها لن تبدو كذلك كلما سبرنا أغوارا أعمق. وليس من قبيل المصادفة أن الأسطورة العبرية التى كانت علامة على بدء الوعى الانسانى، أعنى قصة آدم وحواء فى جنة عدن، قد صورت فى سياق نوع من التمرد . فالوعى يولد فى الصراع ضد حد، سمى فى ذلك الموضع تحريما وتجاوز هذا الحد الذى وضعه « يهواه » عوقب حينذاك باكتساب حدود أخرى تعمل عملها داخليا فى الكائن البشرى، مثل القلق والشعور بالاغتراب والذنب.

غير أن صفات أخرى قيّمة تخرج من تجربة التمرد هذه.. مثل الاحساس بالمسئولية الشخصية، وإمكانية الحب الانسانى التى تتولد عن الوحدة

Lonliness في نهاية المطاف ، وتتحول بالفعل مواجهة الشخصية الانسانية للحدود إلى أن تكون توسعية Expansive وهكذا يسير **التحديد والتوسع** جنبا إلى جنب ويذهب الفرد أدلر إلى أن المدنية نشأت من حدودنا الفيزيائية، أو مايسميه أدلر بالدونية Inferiority . السن بالسن والمخلب بالمخلب، وكان الرجال والنساء أقل مرتبة من الوحوش الضارية، و في الصراع ضد هذه الحدود من أجل بقائهم، تمكنت الكائنات البشرية من تطوير ذكائهم.

قال هرقليطس: «الصراع هو في وقت واحد ملك الجميع وأبوهم (١) وكان يشير إلى الموضوع الذي أذكره هنا: إن الصراع يفترض الحدود مسبقا، والنضال مع الحدود هو بالفعل منبع الانتاجات الإبداعية. فالحدود ضرورية ضرورة الضفاف للنهر، إذ بدونها تتبدد المياه على الارض فلا يكون هناك نهر .. أعني أن النهر يتكون من التوتر بين الماء المتدفق وبين الشاطئين وعلى هذا النحو نفسه يتطلب الفن حدودا بوصفها عاملا ضروريا لمولده .

ينشأ الابداع إذن من التوتر بين التلقائية والحدود، وهذه الحدود (مثل الشاطئين بالنسبة للنهر) تدفع التلقائية للتشكل في الأشكال المتباينة التي هي أساسية للعمل الفني أو القصيدة . واستمع مرة أخرى إلى هرقليطس : غير الحكماء من الناس «لا يفهمون كيف أن الشئ الذي يختلف مع نفسه هو في اتفاق: ذلك أن الانسجام يتألف من التوتر المعارض، مثل ذلك الانسجام القائم بين القوس والقيثارة» (٢)

---

(1) Heraclitus,P.28,Ancilla to the Pre- Socratic philosophers, A complete translation of the fragments in Diels, by kathleen Freeman, Harvard U. press, Cambridge,Mass, 1970 .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٨ ،

وفى مناقشة مع « ديوك إلينجتون » Duke Ellington عن كيفية تأليفه لموسيقاه شرح المسألة بقوله: مادام عازف الترومبيت يستطيع أن يصل إلى نغمات معينة بطريقة جميلة دون غيرها من النغمات، وينطبق هذا أيضا على عازف الترومبون، فإنه يستطيع أن يكتب موسيقاه داخل هذه الحدود. ثم أضاف قائلا: «من المستحسن أن يكون للمرء حدود».

والحق أن هناك فى عصرنا تقويما جديدا التلقائية ورد فعل قويا ضد الصرامة، وهذا يتمشى مع إعادة إكتشاف قيم القدرة الطفولية على اللعب . وفى الفن الحديث ـ كما نعلم جميعا ـ تطور اهتمام جديد برسومات الأطفال وكذلك بالفن الريفى والفن البدائى، وهذه الأنواع من التلقائية تُستخدم فى أحيان كثيرة كنماذج لأعمال فن البالغين. ويصدق هذا بخاصة فى العلاج النفسى فالغالبية العظمى من المرضى يعانون من الشعور بالاختناق والكبت بالحدود المفرطة والصارمة التى يفرضها عليهم آباؤهم، وأحد أسباب لجوئهم إلى العلاج هو فى المقام الأول هذا الاقتناع بأن تلك الأمور جميعا يجب أن تُلقى أدراج الرياح.

وحتى لو كانت هذه النظرة تبسيطية لأمور، فمن الجلى أن هذا الدافع صوب التلقائية ينبغى أن يكون موضع تقدير من المعالج النفسى. إذا لابد للناس أن يستردوا هذه الجوانب « المفقودة » من أن يتكاملوا بأى معنى فعال.

ولكن ينبغى ألا ننسى أن هذه المراحل فى العلاج النفسى، مثل فن الأطفال، ليست إلا مراحل مؤقتة. ففن الأطفال يتسم بأن فيه صنعة ناقصة ورغم التماثل الظاهر مع الفن الموضوعى، فإنه مابرح يفتقر إلى التوتر الضرورى للفن الناضج الحقيقى. إنه وعد ولكنه ليس إنجازا بعد فلابد أن يرتبط فن الشخص النامى ـ إن عاجلا أو آجلا ـ بالتوتر الجدلى الناشئ عن مواجهة الحدود، وهو التوتر الذى نجده حاضرا فى كل أشكال الفن الناضج. «ڤان جوخ» فى أشجار السرو

الملتوية بضراوة، مناظر « سيزان » الطبيعية البديعة التى يمتزج فيها اللونان الأصفر والأخضر والممتدة فى فرنسا الجنوبية والتى تذكرنا بنضرة الربيع الأبدى.. هذه الأعمال تشيع فيها تلك التلقائية. ولكنها تتميز أيضا بتلك الخاصية الناضجة التى تصدر عن استيعاب التوتر. وهذا ما يجعلها شيئا أكثر من مجرد لوحات « شائقة » ، إنه يجعلها عظيمة فالتوتر المتعالى الذى تمت السيطرة عليه فى العمل الفنى ماهو إلا نتيجة صراع الفنانين الناجح مع الحدودوضدها .

٢ – الشكل بوصفه حدا فى الابداع

تتضح دلالة الحدود فى الفن أشد الوضوح عندما نتعرض لمسألة الشكل، فالشكل هو الذى يضع الحدود الجوهرية والبناء لفعل الابداع. وليس من قبيل المصادفة أن ناقد الفن كلايف بل Clive Bell يتحدث فى كتابه عن « سيزان » عن « الشكل الدال » significant form بوصفه المفتاح لفهم أعمال المصور العظيم .

فلنقل إننى أرسم أرنبا على سبورة، فنقول: « هناك أرنب » والواقع أنه لا يوجد على الاطلاق على السبورة سوى الخط البسيط الذى رسمته: فلا نتوء، ولا شئ ثلاثى الأبعاد، ولا فجوة . إنها نفس السبورة التى كانت، ولايمكن أن يكون هناك أرنب «عليها» فأنت لاترى إلا الخط الذى رسمته بالطباشير والذى يمكن أن يكون ضيقا إلى مالانهاية. هذا الخط يحدد المضمون، ويقول مدى المكان **الداخل** فى الصورة ، والمكان الذى **هو خارجها** .. إنه تحديد صرف لهذا الشكل المعيّن . ويظهر الأرنب لأنك قبلت ما نقلته إليك من أن هذا المكان داخل الخط هو ماأريد أن أحدده .

وهناك في هذا التحديد طابع لا مادي، طابع روحي – إن شئت – هذا الطابع ضروري في كل إبداع. ومن ثم فإن **الشكل** – وبالمثل **التصميم** Design **والخطة** Plan ، **والنموذج** Pattern – كلها تشير إلى معنى لا مادي حاضر داخل الحدود.

وتبرهن مناقشتنا للشكل على شئ آخر.. هو أن الموضوع الذى تراه هو نتاج لذاتيتك وللواقع الخارجي. ويتولد الشكل عن العلاقة الجدلية بين مخي (الذى هو ذاتي ، فيّ أنا) وبين الموضوع الذى أراه خارجيا عني (وهذا هو الجانب الموضوعي) . فنحن لانعرف العالم فحسب – كما أصر إيمانويل كانت Immanuel Kant بل إن العالم يتطابق في الوقت نفسه مع طرائقنا في المعرفة. وبهذه المناسبة لا حظ كلمة يتطابق Conform – أى أن العالم يشكلّ نفسه «مع» ، فهو يتخذ أشكالنا، (أى يظهر على صورة الأشكال التى نعرفه بها) .

وتبدأ المتاعب حينما يحاول أى إنسان أن يأخذ على عاتقه الدفاع عن أحد الطرفين القصويين . وعندما يصر فرد على ذاتيته ولا يتبع سوى خياله وحده ، فيكون لدينا – من ناحية – شخص قد تكون تهويمات خياله شائقة، ولكنه لا يرتبط أبدا ارتباطا حقيقيا بالعالم الموضوعي . وعندما يصر فرد ما على أنه لا وجود لشئ « هناك » سوى الواقع التجريبي – من ناحية أخرى – فإننا نكون بإزاء شخص قد تشكل عقله بصبغة تكنولوجية، وتكون النتيجة أنه يعمل على إملاق حياته وتبسيطها تبسيطا مسرفا . ذلك أن إدراكنا الحسى يحدده خيالنا كما تحدده الوقائع التجريبية للعالم الخارجي سواء بسواء.

وقد ميّز كوليريدج في معرض حديثه عن الشعر بين نوعين من الشكل: أحدهما خارجي بالنسبة للشاعر هو الشكل الآلى (الميكانيكى) للسونيت مثلا وهذا الشكل يتألف من إتفاق متعسف في أن السونيت ينبغي أن تضم أربعة عشر بيتا وفقا

لنموذج معيّن. أما النوع الآخر من الشكل فهو عضوى. هذا هو الشكل الداخلى، وهو يصدر عن الشاعر ويتألف من العاطفة التى ينفثها فى القصيدة . وهذا الجانب العضوى من الشكل يؤدى إلى نموها وفقا لطبيعتها الخاصة فهى تتحدث إلينا من خلال العصور لتكشف عن معنى جديد لكل جيل. وربما وجدنا فيها بعد قرون عديدة معنى مستترا فيها لم يكن المؤلف نفسه يعرف بوجوده .

وعندما تكتب قصيدة، تكتشف أن ضرورة ملاءمة معناك فى هذا الشكل أو ذاك ـ هذه الضرورة تتطلب فى حد ذاتها أن تبحث فى خيالك عن معان جديدة وأنت ترفض طرائق معينة لقول هذه المعانى، وتنتقى غيرها، محاولا صياغة القصيدة من جديد دائما وأبدا . و فى هذا التشكيل تصل إلى معان جديدة أكثر عمقا لم تكن تحلم بها أبدا فليس الشكل مجرد تهذيب لمعنى لا تجد له مكانا فى قصيدتك، ولكنه معين لك فى العثور على معنى جديد، ومنشط لتركيز معناك ولتبسيطه وتنقيته، ولتكتشف فى بُعْد أكثر شمولا الماهية التى تود التعبير عنها . وما أكثر المعانى التى كان شكسبير يستطيع أن يضعها فى مسرحياته لأنه نظمها شعرا ولم يكتبها نثرا، أو فى سونيتاته لأنها كانت مكونة من أربعة عشر بيتا !

و فى أيامنا هذه، كثيرا ما يُهاجم مفهوم الشكل بسبب علاقته بـ « الشكليات » Formality و« النزعة الشكلية » Formalism وعلينا أن نتجنب كلا منهما ـ كما يقال ـ كما نتجنب الطاعون. وأوافق على أنه فى الأزمنة الانتقالية مثل زماننا، حيث يصعب أن تقع على الأسلوب النزيه ـ فقد تكون النزعة الشكلية، و« الشكليات » مطلوبة للبرهنة على صدقها . غير أن الهجوم على هذه الأنواع ـ السفاح فى معظم الأحيان ـ من النزعة الشكلية، لا يكون الشكل فى ذاته عرضة للاتهام ، وإنما أنواع أخرى من الشكل ـ هى

بعامة الأنواع الامتثالية Conformist ، والأنواع الميتة ، التي تفتقر بالفعل إلى الحيوية الباطنة العضوية.

وفضلا عن ذلك، ينبغي أن نتذكر أن كل تلقائية تحمل في ثناياها شكلها الخاص . وعلى سبيل المثال، كل مايتم التعبير عنه في لغة، يحمل الأشكال التى تعطيها تلك اللغة وما أشد الاختلاف بين قصيدة كُتبت أصلا بالانجليزية وبين ترجمتها في الموسيقى المنتقاة للغة الفرنسية، أو في المشاعر العميقة القوية للغة الألمانية ! وهذا مثال آخر، ألا وهو التمرد باسم التلقائية على أُطُر اللوحات picture frames الذى يتمثل في الرسومات التي تخرج عن أطرها، محاولةً تكسير حدودها الضيقة جدا، على نحو درامي. هذا الفعل يستعير قوته التلقائية من افتراض وجود إطار يبدأ المرء منه.

وتجاوز التلقائية والشكل هو بالطبع قائم عبر التاريخ البشرى كله. وهو الصراع القديم، وإن يكن محدثا باستمرار بين الديونيزوسي ضد الأبوللوني. وفي المراحل الانتقالية تخرج هذه القسمة الثنائية إلى العلن والصراحة مادامت الأشكال القديمة لا بد من تجاوزها. ولهذا أستطيع أن أفهم التمرد في يومنا هذا ضد الشكل والحدود الذى تعبرّ عنه هذه الصيحة: « نحن نملك إمكانيات لا محدودة »، ولكن عندما تحاول تلك الحركات أن تنبذ الشكل والحدود كلية، فإنها تصبح مدمرة لذاتها ولا مبدعة. فالشكل نفسه لا يمكن تجاوزه مادام الابداع مستمرا ولو قُدّر للشكل أن يتلاشى، لتلاشت معه التلقائية أيضا.

٣ – الخيال والشكل

الخيال هو امتداد العقل، وهو قدرة الفرد على قبول الإغارة على العقل الواعي بالأفكار، والحوافز، والصور وكل أنواع الظواهر النفسية الأخرى النابعة

مما قبل الشعور Preconscious .هو القدرة على «الحلم بالأحلام ورؤية الرؤى» والنظر في الإمكانيات المتباينة، واحتمال التوتر اللازم للامساك بهذه الامكانيات أمام انتباهنا، الخيال هو إلقاء حبال الارساء، واقتناص الفرص والاعتقاد بأنه ستكون هناك مراكز جديدة للرسو في الفضاء الرحب المنبسط أمامنا.

و في المحاولات الابداعية يعمل الخيال متجاورا مع الشكل وعندما تنجح هذه المحاولات، فذلك لأن الخيال قد شحن الشكل بما يملكه من حيوية خاصة.

والسؤال هو: إلى أي مدى نطلق لخيالنا العنان ؟

هل نترك له الحبل على الغارب ؟

هل نجرؤ على التفكير فيما لا سبيل إلى التفكير فيه ؟

هل نجرؤ على تصور الرؤى الجديده، وأن نتحرك بينها ؟

في مثل هذه الأوقات نواجه خطر فقدان الاتجاه، خطر الانعزال التام .هل نفقد لغتنا المُعترف بها والتي تجعل الاتصال ممكنا في العالم نتقاسمه ؟

هل نفقد الحدود التي تمكّننا من توجيه أنفسنا نحو ما نسميه بالواقع ؟ هذه هي مشكلة الشكل تبرز أمامنا مرة أخرى، أو الوعي بالحدود، إن أردنا لها صياغة مختلفة.

وإذا تحدثنا بلغة علم النفس، فإن هذه التجربة هي ما يعانيه كثير من الناس على هيئة « عصاب » psychosis . ومن هنا كان بعض العصابيين يسيرون بالقرب من الجدران في المستشفيات. إنهم يحرصون على التوجه نحو الأطراف، محافظين دائما على التموضع في البيئة الخارجية، لأنهم يفتقرون إلى التموقع الداخلي. ومن ثمّ، فإن من المهم لديهم بصفة خاصة أن يَستبْقوا أي تموقع خارجي متاح لهم.

وقد وجد الدكتور كورت جولدشتاين Kurt Goldstein ـ بوصفه مديرا لمستشفى كبير للأمراض العقلية يستقبل كثيرا من الجنود الذين أصيبوا إصابات مخية أثناء الحرب ـ وجد أن هؤلاء المرضى يعانون من تحديد جذرى لقدراتهم على الخيال. ولاحظ أنهم يحتفظون بخزاناتهم (دواليبهم) فى ترتيب صارم، ويضعون أحذيتهم فى نفس الوضع تماما، ويعلقون قمصانهم فى نفس المكان . فإذا اختل ترتيب خزانة ملابسهم، انتابت المريض حالة من الذعر، فهو لايستطيع أن يوجّه نفسه للترتيب الجديد، ولايستطيع أن يتخيل «شكلا» جديدا يُحل النظام مكان الفوضى. ومن ثمّ كان المريض يلْقَى فيما سماه جولدشتاين «موقف الكارثة» وحينما يَسأل الشخص المصاب فى المخ أن يكتب اسمه على ورقة، فإنه يكتبه فى ركن قريب من الأطراف. فهو لا يحتمل إمكانية الضياع فى الأماكن المفتوحة وأما قدراته على التفكير المجرد، وعلى تجاوز الوقائع المباشرة فى حدود الممكن ـ وهو ما أسميه فى هذا السياق بالخيال ـ فقد تقلصت بشدة وكان يشعر أنه بلا حول ولاقوة لتغيير البيئة ليجعلها ملائمة لاحتياجاته .

مثل هذا السلوك مؤشر على مايمكن أن تكون عليه الحياة إذا انقطعت عن المرء قواه الخيالية. حينئذ لابد أن تبقى الحدود واضحة مرئية دائما . وعندما افتقر هؤلاء المرضى إلى القدرة على نقل الأشكال، وجدوا عالمهم مبتور الأوصال بصورة جذرية وأصبح أى وجود « لا محدود » بالنسبة لهم خطرا هائلا.

ونحن الذين لم تحدث لهم إصابات بالمخ ، من الممكن أن نعانى قلقا مماثلا فى الموقف العكسى..أعنى فى فعل الإبداع . ذلك أن حدود عالمنا تنسحب من تحت أقدامنا، وتنتابنا الرعدة انتظارا لرؤية ما إذا كان أى شكل جديد سيحتل مكان الحدود المفقودة، أم أننا سنتمكن من خلق نظام جديد مكان هذه الفوضى.

وكما أن الخيال يشيع الحيوية فى الشكل، فكذلك يحول الشكل دون أن

يدفعنا الخيال إلى العصاب . هذه هى الضرورة النهائية للحدود . والفنانون هم أولئك الذين يمتلكون القدرة على رؤية الرؤى الأصيلة، وهم يتميزون بخيالات قوية، كما أن لديهم في الوقت نفسه إحساساً متطورا بما فيه الكفاية الشكل بحيث يتجنبون الوقوع في «كارثة» . إنهم كشافة الحدود الذين يتقدموننا لارتياد المستقبل ونحن نستطيع بكل تأكيد أن نتحمل حساسياتهم التى لاضرر فيها ذلك أننا سنكون أكثر استعدادا للمستقبل إذا استطعنا أن نُصغى إليهم بجدية .

ثمة إحساس حاد غريب بالفرح، أو لعله إحساس بالوجد اللطيف – إذا شئنا تعبيرا أفضل – يُقْبل عليك حين تعثر على الشكل المعين الذى تنشده لإبداعك.فلنقل إنك كنت حائرا في البحث عنه أياما طوالا حين واتتك بغتة البصيرة التى فتحت الأبواب الموصدة.. فرأيت كيف تكتب بيت الشعر، ورأيت مزيج الألوان الذى تحتاج إليه في لوحتك ، وكيف تصوغ الموضوع الذى تكتبه لفصل ما ، أو تقع على النظرية التى تتلاءم مع الحقائق الجديدة. وكثيرا ما تعجبت لهذا الاحساس الخاص بالفرح، ذلك أنه لا يتناسب في كثير من الأحيان مع ماحدث بالفعل.

وأكون قد انهمكت في العمل فوق مكتبى صباحا إثر صباح، محاولا أن أجد سبيلا إلى التعبير عن فكرة مهمة. وعندما تبزغ «بصيرتى» بغتة – وربما حدث هذا بينما أشق الخشب بعد الظهر – أشعر بخفة غريبة في خطوتى وكأن حِملاً ثقيلا يُرفع عن كاهلى. إحساسى بالفرح على مستوى أعمق يستمر دون أية صلة بالواجبات الدنيوية التى أقوم بها حينذاك. ولا يمكن أن تكون المسألة مجرد أن المشكلة التى كنت أواجهها قد أجيبت – فهذا يجلب بعامة إحساسا بالارتياح ، فما هو مصدر هذا الابتهاج العجيب ؟

أظن أن هذا هو تجربة: إن هذه – هى – الطريقة التى – ينبغى – أن تكون

عليها الأشياء . ونحن نشارك في أسطورة الخلق، حتى لو اقتصرت هذه المشاركة على هذه اللحظة فحسب. النظام يخرج من اللانظام والشكل من العماء مثلما حدث في خلق الكون ، والاحساس بالفرح يأتي من مشاركتنا ، أيا كانت ضآلتها والمفارقة هي أننا في تلك اللحظة نعاني بمزيد من الوضوح حدودنا الخاصة فنحن نكشف حب المصير amor fati الذى كتب عنه نيتشة .. حب المرء لمصيره، فلا عجب إن منحنا ذلك إحساسا بالوجد !

* * *

الفصل السابع

الولــــوع بالشـــــكل

ظللت مقتنعا سنين عديدة بأن شيئا ما يحدث للخيال فى العمل الابداعى يكون أكثر أساسية، وإن يكن محيِّرا - عما افترضناه فى علم النفس المعاصر. وفى يومنا هذا الذى كرسنا فيه أنفسنا للوقائع والموضوعية العنيدة ، استخففنا بالخيال ويخسناه قدره: فهو يبعدنا عن «الواقع» ويصبغ عملنا بصبغة« الذاتية»، وأسوأ من هذا كله أن يقال عنه إنه لا علمى. ونتيجة لهذا ،أُخذ الفن والخيال فى كثير من الأحيان على أنه الغذاء «المجمد» للحياة، لا الغذاء الصلب الأصلى . فلا عجب أن يفكر الناس فى « الفن » من حيث أساسه المعرفى، على أنه شئ« اصطناعى » أو حتى يعتبروه ترفا يخدعنا بدهاء ، فهو مجرد « حيلة » بارعة Artifice . وكان المأزق الذى وُضعنا فيه عبر التاريخ الغربى هو: هل سننتهى إلى أن الخيال مجرد حيلة بارعة، أم أنه مصدر من مصادر الوجود ؟

ماذا لو لم يكن الخيال والفن مُجمِّدين على الاطلاق، بل منبع رئيسى للتجربة الانسانية ؟ ماذا لو أن منطقنا وعلمنا يستمدان من الأشكال الفنية ويعتمدان أساسا عليها، ولم يكن الفن مجرد تزيين لعملنا حين ينتجه العلم والمنطق ؟ هذه هى الفروض التى اقترحها هنا .

وهذا الموضوع نفسه يرتبط بالعلاج النفسى بطرائق أعمق كثيرا من مجرد اللعب بالألفاظ . وبعبارة أخرى: هل العلاج النفسى حيلة، عملية تتسم بالاصطناعية، أم أنه عملية يمكن أن تعطى الميلاد لوجود جديد؟

— ١ —

في تقليبي لهذه الفروض ، أحضرت معطيات لمساعدتي مُسْتَمدَّة من أحلام الأشخاص الذين أعالجهم . ورأيت أن الأشخاص الذين قمت بتحليلهم، حين يحلمون يصنعون شيئا على مستوى أدنى من مستوى ميكلوجية الدوافع -Psy Psy chodynamics (أو علم النفس الديناميكي) . فهم يناضلون مع عالمهم ليستخرجوا المعنى من اللامعنى، والدلالة من الفوضى، والاتساق من المشاحنة ، وهم يفعلون ذلك بالخيال، بإنشاء أشكال جديدة وعلاقات في عالمهم، وينجزون من خلال التناسب والمنظور عالما يستطيعون البقاء فيه والحياة بشئ من المعنى.

وإليكم هذا الحلم البسيط . رواه رجل ذكي يبدو أنه أصغر من سنهً وهي الثلاثون، وينحدر من حضارة يتمتع فيها الآباء بسلطان ذي شأن . قال :

« كنت في البحر ألعب مع دلافين كبيرة وأنا أحب الدلافين وأريدها أن تكون كالحيوانات الأليفة . ثم بدأ الخوف يعتريني، إذ حسبت أن الدلافين الضخمة سوف تؤذيني فخرجت من الماء إلى الشاطئ . والآن تحولت إلى قطة معلّقة من ذيلها في شجرة والتفت القطة على نفسها في وضع الدمعة المنسكبة، غير أن عينيها كانتا واسعتين مغريتين ، وقد غمزت بواحدة منهما . وصعد دلفين إليها ، وكأب يداعب صغيره لينهض من الفراش « انهض وامض في طريقك »، ضرب القطة ضربة خفيفة ، واستولى الخوف على القطة فأصبحت في حالة من الذعر، فتواثبت في خط مستقيم وسط الصخور المرتفعة متجهة صوب البحر .

فلنطرح جانبا مثل هذه الرموز الواضحة كالدلافين الضخمة التي تمثل الأب ـ وما شاكل ذلك ـ وهي رموز تكاد تختلط دائما بالأعراض المرضية . وإنما

أطلب منك أن تأخذ الحلم بوصفه رسمـا تجريديا، أن تنظر إليه بوصفه شكلا خالصـا وحركـة.

ترى في أول الأمر شكلا مصغرًا هو الصبي الذي يلعب مع أشكال أكبر هي الدلافين . تخيل الشكل الأول على هيئة دائرة صغيرة والشكل الثاني على أنه دوائر كبيرة. والحركة اللاعبة تضفي نوعا من الحب على الحلم الذي يمكن أن نعبّر عنه بخطوط يتجه كل منها صوب الآخر لتتقاطع في اللعب . وفي المشهد الثاني نرى الشكل الأصغر (الطفل أثناء خوفه) يتحرك في خطٍّ يخرج من البحر ويتباعد عن الأشكال الأكبر. ويبيّن المشهد الثالث الشكل الأصغر على هيئة قطة في شكل مخروطي شبيهة بالدمعة المنسكبة ، وعيناها توحيان بالاغراء . ويتقدم الشكل الكبير الآن صوب القطة متحركا إلى فعل التزلف ،وهنا تختلط الخطوط في نظري . هذه مرحلة عصابية نمطية تتألف من أن الحالم يريد أن يحل علاقته بأبيه وبالعالم وهذه المحاولة لاتنجح بالطبع. والمشهد الرابع والأخير هو الذعر الذي يتحرك فيه الشكل الأصغر - وهو القطة خارجة بسرعة من المشهد. إذ تندفع صوب الصخور الأعلى والحركة تتمثل في خط مستقيم خارج قماش اللوحة . ومن الممكن أن نرى الحلم كله كمحاولة من خلال الشكل والحركة لحل مشكلة علاقة هذا الشاب في حبه وخوفه - لأبيه وشخصيات أبيه .

والحل إخفـاق واضح، أمـا « الرسم » أو اللعب ،الذي يجري على أسلوب يونسكو - يبين كما تبين كثير من المسرحيات المعاصرة التوتر الحي في امتناع الصراع على الحل . ومن وجهة نظر العلاج النفساني، نجد ان المريض يواجه صـراعاته بكل تأكيد، وإن لم يكن يسـتطيع أن يفعل شـيئـا في هذه اللحظة سـوى الهرب . وفي هذه المشـاهد نستطيع أن نرى أيضا تقدما في المسـتويات .. فهناك : أولا : مستوى البحر وثانيا: المستوى الأعلى

للأرض وعليها الشجرة، والمستوى الثالث: وهو أعلاها جميعا ، ألا وهو الصخور على الجبل الذى تقفز إليه القطة .ومن الممكنْ تصور هذه المستويات على أنها مستويات الوعى العليا التى يتسلقها الحالم .وهذا التوسع للوعى قد يمثل كسبا مهما للمريض حتى ولو كان الحل الفعلى للمشكلة فى الحلم مآله الاخفاق .

وعندما نقوم بتحويل هذا الحلم إلى رسم تجريدى ، فإننا نكون حينئذ على مستوى أعمق من مستوى علم نفس الدوافع Paychodynamics وأنا لا أعنى أنه ينبغى علينا أن نتجاهل المضامين التى تحتويها أحلام مرضانا، وإنما أعنى أن نمضى إلى ماوراء المضامين لنكشف الأشكال الأساسية. حينذاك نكون بصدد **الأشكال** الأساسية التى لا تصبح إلا فيما بعد ـ صياغات formulatoin بطريقة الاشتقاق .

ومن أشد وجهات النظر وضوحا ، فإن الابن يحاول جاهدا أن يصل إلى علاقة أفضل مع أبيه، وعلى أن يكون مقبولا لديه كرفيق أو صاحب . ولكنه يحاول على مستوى أعمق أن يشيدّ عالما ينطوى على معنى، وفيه مكان ويموج بالحركة محافظا على شئ من التناسب بينهما، عالما يستطيع أن يحيا فيه. **تستطيع أن تعيش بلا أب يتقبلك، ولكنك لا تستطيع أن تحيا بدون عالم يبدو على شئ من المعنى بالنسبة لك** .والرمز بهذا المعنى لم يعد عَرَضا مرضيا وكما أشرت فى موضع سابق (١) والرمز يرجع إلى أصله وإلى معناه الجذرى sym-ballein وهو « الضمّ معا »

---

(١) رولوماى ، « معنى الرموز ، فى الرمزية فى الدين والأدب » تحرير رولوماى (نيويورك ، ١٩٦٠) ، ص ١١ – ٥٠ .

Rollo May, in Symbolism and fiterature, ed. Rollo May (Newyork,1960), pp.11-50

والمشكلة ، أعنى العُصاب وعناصره ، توصف بالكلمة drawring together . المضادة لكلمة « رمزية » Symbolic (أى كلمة الطباق * antonym وهى Dia - Ballein Diabalic أى « التفرقة بين » Pulling apart .

والأحلام هى المجال الذى لا منازع فيه للرموز والأساطير . واستخدم كلمة « أسطورة » لا بالمعنى القادح الذى هو « الزيف » وإنما بمعنى **شكل من أشكال الحقيقة الكلية** يتجلى بطريقة جزئية للعالم . هذه طرائق يجعل بها الوعى الانسانى من اللامعنى معنى للعالم والأشخاص فى العلاج النفسى ، مثلنا جميعا ، يحاولون أن يضعوا العالم فى منظور ما وأن يشكلوا من الفوضى التى يعنونها شيئا من النظام والانسجام .

وبعد أن درست مجموعات من أحلام الأشخاص تحت العلاج النفسى ، اقتنعت بأن هناك خاصية موجودة دائما أطلقت عليها اسم الولوع بالشكل . فالمريض يشيِّد فى « لاشعوره » دراما ؛ ولهذه الدراما بداية ، إذ يحدث شئ « يومض على المسرح ، » ثم ينتهى إلى نوع من انفراج الأزمة dénouement وقد لاحظت أن الأشكال تتكرر فى الأحلام ، وتُراجع ، وتعاد صياغتها ، ثم تعود – كلحن أساسى فى سيمفونية – فى هالة من الانتصار لتُجْمع الأشكال معاً حتى يتألف من المجموعة كلٌّ له معنى .

— ٢ —

ومن التناولات المجدية وجدت أن هناك تناولا **هو أن نأخذ الحلم بوصفه مجموعة (أو سلسلة) من الأشكال المكانية** . وأنا أشير الآن إلى إمرأة فى الثلاثين من عمرها تحت العلاج النفسى ، ففى مرحلة أحلامها ،

---

* فى اللغة العربية – وهى فى باب المحسنات البديعية كالجناس وخلافه . المترجم

كانت هناك شخصية أنثوية – على سبيل المثال – تتحرك على مسرح الحلم . ثم تدخل إمرأة أخرى ؛ ويظهر رجل ، فتخرج المرأتان معاً . هذا النوع من الحركة في المكان حدث في المرحلة السحاقية من تحليل هذه الشخصية المعينة وفي أحلام متأخرة تدخل المريضة ، فتخرج الشخصية الأنثوية التي كانت حاضرة ، ثم يدخل رجل ويجلس إلي جوارها . وبدأت أرى اتصالا هندسيا عجيبا و تقدما مطردا في الأشكال المكانية . وربما كان معنى أحلامها ، وتقدم تحليلها ، أن يكونا قابلين لفهم أفضل إذا نظرنا إلي الكيفية التي تشيدَّ بها تلك الأشكال المتحركة في المكان .. وهي كيفية لم تكن واعية بها على الاطلاق . بدلا من الاهتمام بما تقوله عن أحلامها .

ثم بدأت ألاحظ وجود مثلثات في أحلام هذه المرأة . ففي أول الأمر كانت تشير في أحلامها . إلي مرحلتها الطفولية ، وكان المثلث يتألف من أبيها وأمها والطفل . وفي المرحلة التي اعتبرتها المراهقة ، كان المثلث يتكون من إمرأتين ورجل ، وكانت هي بوصفها إحدى المرأتين تتحرك في المكان نحو الرجل وبعد حوالي شهرين من التحليل ، في مرحلة سحاقية ، كان المثلث يتألف من إمرأتين ورجل بحيث تقف المرأتين معا . وفي مرحلة أخرى متأخرة تحولت المثلثات إلي مستطيلات : وكان الرجلان في الحلم مع امرأتين ، وأغلب الظن أن الرجل صديقها ، وهي ، وأمها ، وأباها وحينئذ أصبح تطورها هو عملية الاشتغال خلال المستطيلات تشكيل مثلث جديد في نهاية الأمر : رجلها وهي وطفل . وهذه الأحلام وقعت في الأجزاء الوسطى والمتأخرة من التحليل .

ومن الممكن أن نرى أن رمز المثلث أساسي من تلك الحقيقة وهي أنه يشير إلي عدد من المستويات المختلفة في آن واحد . ويتحدد المثلث بخطوط ثلاثية ، ويتميز بأنه يتطلب أقل عدد من الخطوط المستقيمة لتكوين شكل هندسي له مضمون .

وهذا هو المستوى الرياضي « للشكل الخالص » ' Pure form ' وكان المثلث أساسيا في فن أوائل العصر الحجرى الحديث .. وما عليك إلا أن تتأمل التصميمات المرسومة على أواني تلك المرحلة ، هذا هو المستوى الجمالي وهو موجود في العلم – والتثليث (علم حساب المثلثات) هو طريقة التي شخص بها المصريون علاقتهم بالنجوم ، والمثلث هو الرمز الأساسي في فلسفة العصر الوسيط وفي اللاهوت – وارجع إلى فكرة التثليث Trinity وهو أساسي أيضا في الفن القوطي والمثل الجرافيكي عليه هو جبل سان – ميشيل -Mant Saint- Mishel وهو تلك الصخرة المثلثة التي ترتفع من البحر يعممها المثلث القوطي الذي شيده المعمار البشري ، والذي ينتهي بدوره إلى قمة تشير إلى السماء .. شكل فني فخم تجد فيه مثلث الطبيعة والانسان ، والإله . وإذا تحدثنا أخيرا من وجهة نظر علم النفس ، وجدنا أمامنا المثلث الانساني الاساسي..الرجل والمرأة والطفل .

وتتجلى أهمية الأشكال في الوحدة التي لافكاك منها بين الجسم والعالم فالجسم هو دائما جزء من العالم . فأنا أجلس على هذا المقعد ، والمقعد على الأرض في هذا المبنى ؛ والمبنى بدوره يستقر على جبل من الصخر هو جزيرة مانهاتن . وأينما سرت ، فإن جسدي يرتبط ارتباطا متبادلا مع العالم الذي فيه وعليه أخطو خطواتي . وهذا يفترض انسجاما مسبقا بين جسمي والعالم ونحن نعرف من الفيزياء أن الأرض ترتفع إلى مالانهاية لتلتقي بخطوتي ، مثلما يتجانب جسمان أحدهما للآخر. والتوازن الجوهري في السير لا يقوم في جسمي وحده ، وإنما لا يمكن أن يُفهم إلا بوصفه علاقة بين جسمي وبين الأرض التي يقف فوقها وعليها يسير ، والأرض جاثمة هناك لتتلقى كل قدم تهبط عليها ، ويتوقف وقع مسيرتي على إيماني بأن الأرض ستكون هناك .

وحاجتنا الايجابية إلى الشكل تتضح من أننا نبني تلقائيا هذا الشكل في عدد لا متناه من الطرق . ها هو الممثل الايمائي مارسيل مرسو Marcel Merceau يقف على خشبة المسرح مشخصًا لرجل يأخذ كلبه ليتمشيا معاً وذراع مرسو ممتدة كأنما يقبض على سلسلة الكلب وبينما يتحرك ذراعه إلى الأمام وإلى الخلف ، « يرى » كل متفرج الكلب وهو يشد السلسلة ليتشمم هذا الشيء أو ذاك في الدغل ومن المؤكد أن الكلب والسلسلة هما أكثر الأجزاء « واقعية » في المشهد حتى وإن لم يكن هناك كلب ولا سلسلة على المسرح إطلاقا ولايوجد هناك إلا جزء من الجشطالت – الرجل مرسو وذراعه أما الباقي فيزودنا به خيالنا بوصفنا متفرجين . فالجشطالت الناقص يستكمله تخيلنا وممثل إيمائي آخر هو جان لوي بارو Gean Louis Barraut .الذي يؤدي دور رجل أصم أبكم في فيلم « أطفال الفردوس » – يروي لنا بالتمثيل الصامت كل ماحدث لرجل نشلت نقوده في الزحام – ويقوم بحركة واحدة معبرة عن كرش الضحية السمين ، وبحركة أخرى عن التعبير الصارم المرتسم على وجه رفيقه ، وهلم جرًا حتى تتمثل لنا صورة حية لحادثة النشل كلها . وهذا كله دون أن ينطق بكلمة واحدة .فليس هناك إلا ممثل يؤدي حركات قلائل في كثير من الصنعة البارعة . أما الفجوات كلها فيملأها خيالنا تلقائيا .

ويثب الخيال الانساني ليقوم بتشكيل الكل ، لاستكمال المشهد لكي يضفي عليه المعنى . والطريقة الفورية التي يتحقق بها هذا تبين كيف أننا مدفوعون لبناء ما تبقي من المشهد . وملء الفجوات أمر ضروري لكي يكون للمشهد معنى . وإذا كنا نفعل ذلك أحيانا بطرائق مضللة وأحيانا بطرق عصابية أو هذائية paranoid – فليست هذه هي النقطة المركزية . ذلك أن ولوعنا بالشكل يعبر عن شوقنا إلى أن نجعل العالم ملائما لاحتياجاتنا

ورغبـــاتنا ، وأهـــم من ذلك لكي نجربّ أنفسنا بوصفنا أشخاصـــا لهم دلالة .

وقد تكون عبارة « الولوع بالشكل » عبارة شائقة ، بيد أنها أيضا إشكالية Problematic . فلو أننا اقتصرنا على استخدام كلمة « **شكل** » فإنها تبدو مفرطة فى التجريد ، ولكنها عندما تجتمع بكلمة ولوع ، نرى أن المقصود ليس هو الشكل بأى معنى عقلى ، وإنما المقصود هو المشهد الكلى . وما يحدث فى الشخص ، مستترا وراء السلبية أو أية أعراض عصابية أخرى هو عاطفة يملأها الصراع وتسعى إلى إضفاء المعنى على حياة تبلغ حد الأزمة .

وقد أخبرنا أفلاطون منذ أمد بعيد كيف أن العاطفة الجامحة – أو « الإيروس » Eros على حد تعبيره – تتحرك صوب إبداع الشكل الإيروسى الذى يتحرك نحو صياغة المعنى والكشف عن الوجود . ولما كان الإيروس من حيث أصله جنيا Daimon يدعى الحب ، فهو محب الحكمة ، وهو القوة التى هى فطرية فينا لتولّد الحكمة والجمال على السواء . ويقول أفلاطون على لسان سقراط إن الطبيعة البشرية لن تجد بسهولة مساعدا أفضل من الحب (إيروس) . »(٢) وكل خلْق أو انتقال من اللاوجود إلى الوجود هو عبارة عن شعر أو صنعة كما يقول أفلاطون : « وكل عمليات الفن إبداعية ، وكل أساتذة الفنون شعراء أو صانعون »(٣) ومن خلال « الايروس » أو عاطفة الحب التى هى جنية وبناءة فى آن معا ، ينظر أفلاطون إلى الأمام متطلعا : « وأخيرا رؤية ... علم واحد ، هو علم الجمال فى كل مكان »(٤)

---

(2) Plato, Symposium,trans. Benjamin jawett, in the Portable Greek Reader,ed.W.H. Auden (new york, 1948), P. 499 .

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٩٧ .

(٤) فى مكان آخر من هذا الكتاب لاحظت أن الرياضى بوانكاريه يريد توكيدا مماثلا على « الايروس » بوصفه مولّدا للجمال والحقيقة فى آن واحد . (انظر ص ٧٣٠)

وعلى هذا النحو يتحدث الرياضيون والفيزيائيون عن « الرشاقة » Elegance التي تتسم بها نظرية ما . والمنفعة هنا تقع في مرتبة أدنى بوصفها جزءا من الخاصية التي يتمتع بها الشئ الجميل ،ذلك أن الانسجام في الشكل الداخلي ، والاتساق الباطني لنظرية ما ، وصفة الجمال التي تلمس حساسياتنا .. هذه كلها عوامل ذات دلالة تحدد لماذا تبزغ البصيرة المعينة في الوعي دون غيرها .

وبوصفي محللا نفسيا ، ليس في وسعي أن أضيف شيئا سوى أن تجربتي في مساعدة الآخرين على تحقيق الاستبصارات من الأبعاد اللاشعورية داخل أنفسهم تكشف عن هذه الظاهرة نفسها .. ألا وهي أن الاستبصارات تنبثق أساسا لا لأنها « صادقة عقليا » أو حتى لأنها مفيدة ، ولكن لأنها تتميز **بشكل** معين هو الشكل الجميل الذي يستكمل ماليس كاملا فينا .

هذه الفكرة ، هذا الشكل الجديد الذي يقدمً نفسه بغتة ، يأتي لكي يكمل جشطالتنا لم يكن كاملا حتى الآن كنا نناضله في إدراك واعٍ ، ويستطيع المرء أن يتحدث بدقة شديدة عن هذا النموذج الذي لم يكتمل ، هذا الشكل الذي لم يتشكل بوصفه المكونً لذلك « النداء » الذي يعطيه ما قبل شعورنا من جيشانه العنيف الإجابة المنشودة .

— ٤ —

وأنا أعني بعبارة « الولوع بالشكل » مبدأ للتجربة الانسانية يماثل عددا من أهم الأفكار في التاريخ الغربي . فقد ذهب « كانت » إلى أن ذهننا ليس مجرد انعكاس للعالم الموضوعي من حولنا ، بل إنه **يكوًن** العالم أيضا . وليست المسألة أن الأشياء تتحدث **إلينا** ببساطة ، ولكنها تتلاءم أيضا لطرائقنا في المعرفة . وعلى هذا النحو فإن العقل عبارة عن عملية إيجابية لتشكيل العالم وإعادة تشكيله .

وحين قمت بتفسير الأحلام على أنها دراما لعلاقة المريض بعالمه ، سألت نفسي : ألا يكون هناك شئ على مستوى أعمق وأشمل في التجربة الانسانية .. شئ موازٍ لما كان يتحدث عنه كانت ؟ أو بعبارة أخرى ، هل يمكن ألا يكون ذهننا العقلي وحده هو الذي يلعب دورا في تشكيل العالم وإعادة تشكيله في عملية معرفته ، بل أن يكون **الخيال والعواطف** مشتركين أيضا في القيام بدور نقدي ؟ لابد أننا نفهم بمجموعنا Totality الكلي لا بالعقل وحده ومجموع أنفسنا الكلي هو الذي يشكّل الصور التي يتلاءم معها العالم .

ولايقوم العقل وحده بتشكيل العالم وإعادة تشكيله فحسب ، بل إن « ماقبل الشعور » Preconscious بدوافعه واحتياجاته يفعل ذلك أيضا ، وهو يفعل ذلك على أساس الرغبة والقصد ذلك أن الكائنات الانسانية لاتفعل فحسب ، وإنما تشعر وتريد أثناء صنعها الشكل لعالمها . وهذا هو السبب الذي جعلني استخدم كلمة **العاطفة القوية** passion التي هي جماع الاتجاهات الشبقية والدينامية في عبارة « الولوع بالشكل » . فالأشخاص الذين يخضعون للعلاج النّفسي – أو أي شخص آخر في هذا الصدد – لاينخرطون ببساطة في معرفة عالمهم ، بل إن ما ينخرطون فيه هو إعادة تشكيل عالمهم بحماسة شديدة بفضل علاقتهم المتبادلة معه .

هذا الولوع بالشكل هو سبيل لمحاولة إيجاد معنى في الحياة الانسانية يكمن تحت العقل نفسه ، ذلك لأن الوظائف العقلية – وفقا لتعاريفنا – يمكن أن تؤدي إلى الفهم ، وأن تشارك في تكوين الواقع في حالتها الابداعية فحسب . وهكذا يتدخل الابداع في كل تجربة لنا عندما نحاول أن نضفي المعنى على علاقتنا الذاتية بالعالم .

ويتحدث الفليسوف ألفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead

أيضا مؤيدا هذا الولوع بالشكل . وقد شيد هوايتهيد فلسفة قائمة أساسا لا على العقل وحده ، ولكنها تشمل مايسميه « الشعور » Feeling . وهو لايعني بالشعور مجرد التأثر العاطفي وإنما يعني – كما فهمته – القدرة الإجمالية للكائن العضوى البشرى على تجربة حياته أو حياتها . ويعيد هوايتهد صياغة مبدأ ديكارت الأصلى على النحو التالى :

« كان ديكارت مخطئا عندما قال « أنا أفكر إذن فأنا موجود » Cogito,ergo sum – إذ أننا لا نعي الفكر المجرد وحده أو الوجود المجرد وحده فأنا أجسد نفسي أساسا وحدةً من العواطف ، والابتهاج ، والآمال ، والمخاوف ، وألوان الندم ، وتقييمات للبدائل والقرارات .. كل هذا ماهو إلا ردود فعل ذاتية لبيئتي مادمت إيجابيا في طبيعتي ووحدتي التى هى « أنا موجود » عند ديكارت هى العملية التى أقوم بها لتشكيل هذا الخليط من المادة إلى نموذج متسق من المشاعر » . (٥)

وماأسميه « الولوع بالشكل » ، إذا كنت مصيبا في فهم هوايتهيد هو الجانب المركزى لما يصفه بأنه تجربة الهوية * experience of identity قادر على تشكيل المشاعر والحساسيات ، والمباهج ، والآمال في نموذج يجعلني واعيا بنفسي بوصفي رجلا أو امرأة ، غير أنني لا أستطيع أن أقوم بتشكيلها في نموذج بوصفها فعلا ذاتيا صرفا . وإنما أستطيع أن أفعل ذلك من حيث أنني مرتبط بالعالم الموضوعي المباشر الذى أعيش فيه .

---

(5) Alfred North Whitehead : His Reflections on Man andNature, selected by ruth nanda Ashen (New york, 1961) , P28

* عندما قرأ صديق لي هذا الفصل ولما يزل مخطوطا ، أرسل الي هذه القصيدة الأصلية التى أوردها بعد استئذانه :

أنا موجود — إذن فأنا أحب
تلك الحساسية الشاملة — التي تطلعت إليّ فورا
من وجهك الذى لم — يصنع دفاعا .
أنا أحب ، إذن فأنا موجود .

وتستطيع العاطفة الجامحة أن تدمر الذات غير أن هذه ليست هي العاطفة المتصلة بالشكل ؛ وإنما هي العاطفة وقد انفلت عيارها . ومن الواضح أن العاطفة يمكن أن تكون شيطانية ، كما يمكن أن تكون رمزية — وتستطيع أن تشوه Deform ، كما تستطيع أن تشكّل ، وفي إمكانها أن تدمّر المعنى ، وتشيع الفوضى مرة أخرى وعندما تبزغ القوى الجنسية في مرحلة البلوغ ، تقوم العاطفة مؤقتا بتحطيم الشكل ، بيد أن للجنس أيضا إمكانيات إبداعية عظيمة لأنه عاطفة بالذات وإن لم يكن تطور المرء مرضيا بصورة جذرية ، فسوف يحدث أيضا في البالغ نمو نحو شكل جديد ، في الرجولة ، أو الأنوثة – في تضاد مع حالته أو حالتها السابقة بوصفه فتىً أو فتاة .

— ٥ —

والحاجة الملحة التي تدفع كل إنسان إلى أن يخلع الشكل على حياته يمكن أن نوضحها بحالة الشاب الذي تشاور معي أثناء كتابتي لهذا الفصل . كان هذا الشاب هو الابن الوحيد في الأسرة من أصحاب المهن ، تشاجرت فيها الأم مع الأب ، وتحاربا باستمرار تقريبا ، منذ ولادته ، وفقا لما تحتفظ به ذاكرته ولم يكن قادرا أبدا على التركيز أو الاجتهاد في دراساته بالمدرسة . وعندما كان صبيا من المفترض أنه يذاكر في حجرته ؛ كان يسمع خطوات والده أثناء صعوده السلم ، كان يفتح في الحال صفحات كتاب مدرسي ليغطّي به مجلة ، عن الميكانيكا كان يتصفحها . وهو يتذكر أن أباه ، وهو رجل ناجح ، ولكنه يبدو من الظاهر باردا أشد البرود ، قد وعده مرارا وتكرارا بأن يأخذه في رحلات متعددة كمكافأة إذا هو اجتاز أعماله المدرسية بنجاح ، غيرأن شيئا من هذه الرحلات لم يتحقق .

وقد جعلته أمه موضع سرها ، وكانت تناصره في خلافاته مع أبيه واعتاد أن يجلس هو وأمه في الفناء الخلفي ليتحدثا في الأمسيات الصيفية، حتى ساعة

متأخرة من الليل .. كانا « شريكين » يحفران معا – على حد تعبيره – ولجأ أبوه إلى الشدة لكي يصل به إلى القبول في كلية جامعة في شطر آخر من المدينة ، غير أن الشاب أمضى ثلاثة شهور دون أن يغادر حجرته ، حتى أتى الوالد ليعيده إلى البيت .

وفي أثناء معيشته في المنزل ، كان يشتغل بالنجارة ، ثم أصبح بعد ذلك عاملا بناء في فرق السلام، ثم رحل إلى نيويورك وأعال نفسه بوصفه سمكريا ، مع اشتغاله بالنحت في أوقات الفراغ ، حتى صادف شيئا من الحظ فحصل على وظيفة مدرس في الحرف اليدوية في جامعة لمدة ساعة خارج المدينة . غير أنه في وظيفته تلك لم يكن قادرا على توكيد ذاته أو التحدث بوضوح ومباشرة سواء لطلبة أو للقائمين على شئون الكلية .إذ كان ينتابه نوع من التهيب المفرط في حضرة الخريجين من الكلية الذين احتكروا اجتماعاتهم بثرثرتهم التي كان يشعرُ بأنها جوفاء متكلفة . وفي هذه الحالة العقيمة من الدوخان والحيرة ، بدأ يعمل معي في أول الأمر ، فوجدته شخصا على حساسية غير مألوفة ، كريما ، موهوبا (أهداني تمثالا مصنوعا من الأسلاك قام بتكوينه في حجرة انتظاري وكان بديعا) . وكان جادا في انطوائه على نفسه دون أن ينجز في الظاهر أي شئ عملي في وظيفته أو حياته .

عملنا معاً مرتين في الأسبوع معظم أيام السنة ، وفي هذه السنة أحرز تقدما غير مألوف في علاقته الشخصية المتبادلة . وهو يعمل الآن عملا مجديا ، وتغلب تماما على خوفه العصابي من زملائه أعضاء الكلية . واتفقنا أنا وهو على التوقف عن العمل مادام يقوم الآن بعمله في نشاط وإتقان . وكان كل منا يدرك على كل حال أننا لم نكن قادرين أبدا على استكشاف علاقته بأمه بصورة كافية.

وعاد إليّ بعد عام آخر كان قد تزوج في هذه الفترة ، بيد أن هذا الزواج لم يكن يبدو أنه يشكل أية مشكلات خاصة والطريق المسدود التي ظهر في الوقت

الحاضر نشأ عن زيارة قام بها هو وزوجته لأمه فى الشهر السابق ، وكانت فى هذا الوقت فى مستشفى للأمراض العقلية . فوجدها تجلس إلى مكتب الممرضات فى الدهليز- انتظارا لسيجارتها - ثم دخلت حجرتها لتتحدث إليهما ، ولكنها لم تلبث أن خرجت لتستمر فى انتظارها حتى يحين وقت تقديم سيجارتها المسموح بها .

وعند عودته للقطار ، كان الشاب فى حالة شديدة من الإكتئاب فقد كان يعلم الكثير من الناحية النظرية عن حالة الشيخوخة المتزايدة عند أمه ، غير أنه لم يكن قادرا على أن يجعل لها معنىً عاطفيا . وكانت حالته الانسحابية الفاترة مماثلة ، وإن تكن مختلفة أيضا عن حالته التى أتى بها أول مرة .إذ كان قادرا الآن على أن يتواصل معى مباشرة بصراحة وأصبحت مشكلة متموضعة (إن صح هذا التعبير) ، متخصصة فى مضاد الدُوار العام الذى كان يعانيه منذ أن جاء أول مرة . كان صلته بأمه مهوشة وفى هذا الشطر من حياته لم يكن يشعر بأى شكل على الإطلاق ، وإنما مجرد لاختلاط للأمور ينخر فى قلبه .

وبعد أول جلسة لنا ، ارتفع الدوار الذى كان مسيطرا عليه ، غير أن المشكلة مابرحت باقية . وهذه هى وظيفة الاتصال فى كثير من الأحيان ساعة العلاج النفسى : فهى تسمح للشخص بأن يتغلب على إحساسه بالاغتراب عن الجنس البشرى . ولكنه لاتكفى وحدها لإحداث تجربة أصيلة لشكل جديد .إنها تقوم بعملية تهدئة ، ولكنها لاتنتج شكلا جديدا . والتغلب على الاضطراب على مستوى أعمق هو الشئ المنشود ، وهذا لايمكن أن يتم إلا على أساس نوع من البصيرة .

وفى هذه الساعة الثانية استعرضنا بالتفصيل تعلق أمه به واضطرابه الذى يمكن أن يُفْهم والذى يمكن يشعر به إزاء حالتها الحاضرة ، وحتى وإن كان يعرف أنها كانت تتردد عليها منذ سنين وكانت قد جعلته فى السر « الأمير ولى العهد »

وأوضحت له أنها كانت إمرأة قوية المراس فى تلك المعارك مع أبيه ، وأنها أغرته بالابتعاد عن أبيه ، واستغلّته فى محاولاتها لإلحاق الهزيمة بالأب ، وعلى العكس توهمه بأنهما كانا شريكين ، وكانا « يحفران » له ، لم يكن بالفعل سوى رهينة ، شخص صغير يُستخدم فى معارك أضخم كثيرا . وعندما ذكر دهشته عندما تكشفت لبصيرته هذه الأشياء ، ذكّرني بقصة رويتها له . كان هناك رجل يبيع الهامبورجر زاعما أنها من لحم الأرانب بثمن بخس يدعو إلى الدهشة وعندما سأله الناس كيف يصنعه ، اعترف بأنه يستخدم لحم الخيول ولكن حين لم يكن هذا التفسير كافيا ، اعترف مرة أخرى بأنه يتألف من ٥٠ ٪ من لحم الخيول و ٥٠ ٪ من لحم الأرانب ، ولما استمروا فى سؤاله عما يعنيه صرح بقوله : « أرنب واحد مقابل حصان واحد »

إن الصورة المرسومة للأرنب والحصان منحته تجربة « اندهاش » قوية ، أعظم بكثير مما يمكن أن يظفر به من أى تفسير عقلي . وظل متعجبا من أنه كان الأرنب لا بأى معنى يحط من شأنه ، ولكن من إدراكه الواعى بمدى عجزه الذى كان فيه أثناء طفولته . وارتفع عبء ثقيل من الذنب وعداوة لم تجد لها تعبيرا من قبل عن ظهره . وهذه الصورة منحته الوسيلة لكى يفهم أخيرا مشاعره السلبية تجاه أمه ، وكثير من تفاصيل خلفيته سقطت الآن فى مكانها ، وبدا أنه قادر على قطع الحبل السرّى النفسى الذى لم يكن يعلم بوجوده من قبل .

والغريب أن أشخاصا فى مثل هذه المواقف يتركون انطباعا بأنهم يمتلكون طيلة الوقت القوة اللازمة لإحداث تلك التغييرات ؛ ولم تكن المسألة أكثر من انتظار « شمس الأمر » لتذيب ضباب الحيرة » (الاستعارة وصياغتها بألفاظ نبوءة دلفى) ، فالعاطفة فيما يتعلق بحالته تصورها البهجة التى قبض بها على هذه البصيرة ، والفورية التى أعاد بها تشكيل عالمه النفسى وأعطى الانطباع – الذى هو أيضا سمة مميزة للتجربة – بأنه قد ادخر القوة فى المراحل السابقة

حتى أصبح من الممكن العثور أخيرا على القطعة الصحيحة فى أحجية الصور المقطوعة jigsaw puzzle للإمساك بغتة بتلك القوة واستخدامها .

وفى جلستنا الثالثة والأخيرة أنبأنى بقراره الجديد بالاستقالة من وظيفته فى الجامعة ، والبحث عن مرسم (استوديو) يستطيع أن يكرس فيه نفسه تماما لممارسة فن النحت .

ومن الممكن أن نعتبر الاتصـــال فى الجلسة الأولى الخطوة التمهيدية فى هذه العملية الابداعية ثم جاءت تجربة « الاندهاش » بوصفها الاستثارة المنشودة ، ويستحسن أن تكون على هيئة صورة .. وقد تولدت فى وعى الفرد والخطوة الثالثة هى اتخاذ القرارات وهذا مافعله الشباب فيما بين الجلستين الثانية والثالثة ، كنتيجة للشكل الجديد المتحقق ، ولايستطيع المعالج أن يتنبأ على وجه الدقة بطبيعة تلك القرارات ؛ إنها **كائن حى يتولد عن الشكل الجديد**

والعملية الابداعية تعبير عن هذا الولوع بالشكل وهى الصراع ضد التحلل ، صراع لإيجاد أنواع جديدة من الوجود تشيع الانسجام والتكامل .

ولأفلاطون فى تلخيص ماقلناه نصيحة ساحرة :

« ولمن أراد أن يتقدم تقدما مستقيما على هذه الطريقة أن يبدأ منذ صباه فى غشيان الأشكال الجميلة ، وإن كان لمعلمه أن يرشده حق الارشاد ، فعليه أولا أن يحب شكلا واحدا فحسب ، ومن هذا يمكن أن يبدع أفكارا جميلة ، وسرعان مايدرك من تلقاء نفسه أن الجمال الذى ينطوى عليه شكل من الأشكال له نسب بالقرابة إلى جمال شكل آخر ، وأن الجمال فى كل شكل هو جمال واحد بعينه » (٦) .

تم الكتاب

(٦) أفلاطون – المرجع المذكور – ص ٤٩٦ .

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة .. فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الابداع المختلفة .

شجاعة الإبداع

« شجاعة الابداع » مزيج من الفلسفة وعلم النفس ، وإن شئنا الدقة هو بحث فى فلسفة الابداع والعبقرية . وقد كتبه المؤلف بوصفه مشاركا فى الفن والعلم على حد سواء ، فهو بالاضافة إلى كونه محللا نفسيا ومفكرا وجوديا يعد فنانا تشكيليا مرموقا .

ويحاول المؤلف أن يجيب على أسئلة ظلت تطارده زمنا طويلا : ماهى طبيعة الإلهام ؟ ما هى العلاقة بين الموهبة وفعل الابداع ، وبين الابداع والموت ؟ هل يمكن أن يكون الجمال فى حد ذاته سبيلا إلى الحقيقة ؟

وهكذا يتناول المؤلف عملية الابداع بوصفها سرا لا يدركه المرء إلا إذا واتته شجاعة الابداع ، فحاول أن يبدع شيئا فى الفن أو العلم أو الفلسفة .

فليس يكفى أن تكون لدينا شجاعة الوجود ، لأن الانسان لا يمكن أن يوجد فى فراغ ، وإنما لابد من التعبير عن وجوده بالابداع : والشجاعة صفة لازمة للإقدام على هذه العملية الابداعية .

دار سعاد الصباح